قصة أديب

كيف كنت أنظر إلى الأدب من خمسين سنة. لا بد لي من أن أطوي هذه السنين الخمسين حتى أستطيع أن أقابل بين الأفق الضيق الذي كان يعيش فيه الأدب، وبين الأفق الرحيب الذي تقلب في أعطافه في خلال نصف قرن، ماذا كنّا نفهم من الأدب في تلك الأيام البعيدة، إني مضطر إلى الاعتراف بأن المدرسة التي نشأت فيها لم تخلق فيَّ ميلاً إلى أدبنا، وإذا كنا قد أصبنا من هذا الأدب شيئاً يسيراً فإن هذا الشيء قد أفسد أذواقنا ولولا صديق في المدرسة تولى تقويم الذوق لما كان لي في الأدب كثير أو قليل، وعلى الرغم من هذا هل كنا نفهم الأدب على حقيقته، على الوجه الذي نفهمه اليوم.

لقد فتحنا أعيننا على دواوين طائفة من الشعراء، وعلى كتب فريق من الكتاب، ولكن ماذا كنا نفهم من شعر أولئك الشعراء وكتابة أولئك الكتاب، كنا نعنى بلفظ من الألفاظ أو بجملة من الجمل أو بتركيب من التراكيب، فكنا ندون هذا كله في دفاترنا ونتفاوض فيه في مجالسنا، فكان القالب الذي تفرغ فيه الفكرة شغلنا الشاغل، ولم ننظر إلى ما وراء القالب من الصور، ولا كنا

ندرك من محاسن الصور أو من مقابحها شيئاً، فكان يغلب علينا التغني ببيت من الشعر فيه لفظ تستميل أذواقنا إليه أو التغني بجملة من الجمل فيها نغم تنغش مسامعنا إليه، كنّا ننظر إلى الظاهر ولا نهتم بالباطن، وإذا قابلنا بين هذه النظرة إلى الأدب وبين نظرتنا إلى الحياة بأجمعها في ذلك العصر وجدنا أن التناسب مستحكم بين النظرتين، كانت حياتنا بسيطة في مجامع أوضاعها لأن العصر الذي عشنا فيه كانت البساطة غالبة عليه، فمشاكل السياسة لم تنصرف إليها إلا فئة قليلة من الناس، ومشاكل العالم لم يعن بها إلا نفر قليل من الخلق، والعلم كان ضيّق الآفاق فلم يتحدث الناس في مجالسهم بالصواريخ وإرسال الأقمار؛ كانت أسرار الفضاء مغلقة الأبواب والمذاهب الاجتماعية لم يكن لها صدى في أحاديثنا فكنا لا نعرف شيئاً عن الاشتراكية أو الشيوعية أو التقدمية ومذهب أهل الرجعة، والمرأة كانت قابعة في بيتها، لم تزاحم الرجل في الحياة العامة، ولم تخلق له هذه المشكلة التي قد نسميها بعد قليل من السنين:

مشكلة مطالبة الرجل بحقوقه أقول هذا بالنسبة إلينا معاشر الطلاب الذين خرجنا من مدارسنا في أواخر سنة ١٩١٣ ولا أقول هذا القول بالنسبة إلى جماعة كانوا يعنون بالبحث عن مشاكل السياسة والاجتماع وما شاكلهما لم أشعر قبل خمسين سنة بأني أعيش في عالم متحرك يجرفه تيار لا يستطيع أن يقف في وجهه فكأني كنت أؤمن بثبات الحياة على نحو أولئك المهندسين الذين

بنوا هياكل المصريين والاغريق دون أن يفطنوا إلى كرور الأيام، كان شعورهم بثبات الحياة شديداً، فلم تتغير شروط الحياة في عصورهم بسرعة تمكنهم من الإحساس بالإختلافات التي تقع من سنة إلى سنة ومن بطن إلى بطن، من هذه الناحية نجد أن القرن التاسع عشر أقوى فطنة إلى هذا التغير فقد كثرت الاختراعات فيه وفي العصر الذي نعيش فيه، فكل شيء في الحياة قد تغير وانقلب، وقد تبعت انقلابات المادة انقلابات ثانية في آفاق الاجتماع والاقتصاد فالمجتمع في يومنا هذا يعيد النظر في بنيانه على أسس جديدة، إن طائفة من الأفكار التي كانت تدخل في مذاهب الفلاسفة وحدهم أخذت تدخل في أذهان الناس عامة فقد انحدرت آفاقها العلمية إلى آفاق أقرب، والفن والأدب لا يسعهما تجاهل هذه الأفكار الجديدة والمذاهب الحديثة، ومن هذه الأفكار والمذاهب فكرة التقدم ومذهب التطور فقد كان روح الابتداع والاختراع من خصائص العلماء وحدهم أما اليوم فإن الكتاب يهتمون بالابتداع والاختراع في كتاباتهم على نحو العلماء.

كل هذا كنت أجهله قبل خمسين سنة، كانت حياتنا بسيطة والتماثل بين أدبنا وبين حياتنا كان وثيق الأواصر قدر نظرتنا إلى ظواهر الحياة كانت نظرتنا إلى ظواهر الأدب، كنا ننظر في الأدب إلى العرض لا إلى الجوهر، إلى الكأس لا إلى ما ملئت به هذه الكأس، وما أشد الفرق بين النظرتين، نظرة إلى سطوح الأمور

ونظرة إلى الأعماق، ومن سطوح الأمور الإفراط في الإهتمام بالمآكل والمشارب والملابس، الإفراط في الاهتمام بمسرات الحياة، والإهمال لمشاكلها والتنقيب عن أسرارها وغاياتها ومذاهبها، فكما شغلتنا ظواهر الحياة عن بواطنهما فكذلك شغلتنا ألوان الصورة في الأدب عن جوهر الصورة.

ولكن هل طالت نظرتنا إلى الحياة وإلى الأدب على هذا الشكل، لقد ودعنا سنة ١٩١٣ واستقبلنا الحرب الكبرى الأولى ثم وضعت الحرب أوزارها فاستقبلنا عهداً جديداً بالنسبة إلينا معاشر الشباب، استقبلنا دولة استفاضت في أفيائها ألفاظ الحرية والسيادة والاستقلال، فوجدنا أن هذه الألفاظ تدل على معان جديدة أخذت تدخل أذهاننا ولم يكن لنا بها عهد من قبل، وتبيّن أن هذه المعاني قد خرجت عن البساطة فكانت تستلزم الجهد الجاهد والنضال الشديد وربما صحب هذا الجهد وهذا النضال شيء من سفك الدم، فالتفتنا حينئذ إلى أدبنا لنعبر عن هذه الحياة الجديدة التي واجهناها فرأينا أن العناية بالألفاظ وحدها لا تقوم بما نريد. فأخذنا نبحث عن الأفكار، أخذنا نبحث عن الصورة نفسها فضلاً عن ألوانها أو صيغها أو قوالبها، فخرج حينئذ أدبنا عن بساطته خروج حياتنا نفسها عن هذه البساطة ودخل في أفق جديد فاستحكم الانسجام بين هذه الحياة الجديدة وبين هذا الأدب الجديد الذي استفاض في صحفنا في صورة المقال، فالحياة اشتدت

أضاحيها واستلزمت هذه الشدة قوالب شديدة فكان المقال رمز الحياة الجديدة رمز شدتها وجهدها ونضالها.

هذه مرحلة ثانية من مراحل حياتي الأدبية رأيت فيها تشابك الأدب والحياة فالأدب يصدر عن المجتمع والمجتمع يصدر عن الأدب، فهما متصلان لا يكاد الواحد ينفصل عن الآخر.

ولكن لماذا مارست المقال، ولم أمارس القصة،و فكثيراً ما سألوني هذا السؤال.

إن العصر الذي فتحت عيني عليه وأوله سنة١٩١٨ أي أواخر الحرب الكبرى الأولى كان عصر نضال، لقد أخذ العرب على الحلفاء عهوداً ومواثيق أن يعترفوا لهم باستقلال بلادهم بعد الحرب فلما انقضت الحرب نقض الحلفاء عهودهم ومواثيقهم ولماذا لم ينقضوها وقد انتفعوا بثورة العرب الكبرى في خلال الحرب فلم يبق لهم انتفاع بهم بعد الحرب، لقد عصروا البرتقالة وطرحوا قشرها، فكان على رجال الفكر والأدب في بلاد العرب أن يجاهدوا بأقلامهم في سبيل حرية البلاد وسيادتها واستقلالها ولا ريب في أن المقال كان أبسط الأنواع الأدبية فهو يدخل القلوب دون كثير من أعمال الرواية فليس فيه تحليل لعاطفة أو لفكرة أو لوضع المجتمع وإنما يواجه الفكرة والعاطفة مواجهة فلا يصعب على الأذهان أن تدرك أسراره لأول وهلة، كان همّ المقال في بعض الأحيان استشارة العامة والخاصة حتى تحذر الغرب وغوائلها وكان

همّه في بعض الأوقات التهويش حتى يستفحل في القلوب بغض الرجال الذين مدوا أيديهم إلى الدولة المنتدبة وكراهيتهم كما كان همه في بعض الأحوال غرس الأفكار الوطنية والقومية وإذا أردت أن أتبسط في غايات المقال طال بي التبسط وقد استطيع أن ألخص هذه الغايات في أن المقال كان يواجه الحياة الواقعة مواجهة بسيطة لا شيء فيها من زخارف الفن أو من دقائق التحليل أو الوصف وما شابه، حسبه أن يكون البيان فيه واضحاً قوياً وحسبه أن تكون الفكرة فيه ظاهرة حتى يعمل عمله في القلوب.

فالقصة في مثل هذه الحالة التي وصفتها وأوجزت في وصفها لم يكن لها أثر والكاتب الذي انصرف إلى الرواية مع اعتنائه بالمقال في جريدته إنما هو معروف الأرناؤوط صاحب رواية سيد قريش وأخواتها من الروايات التي خلدّت أعاظم رجال التاريخ، كان المؤلف رحمه الله مرح الظاهر والباطن فانعكس مرحه على بيانه فطفحت رواياته بالصور الشعرية فقد كان يقرأ كثيراً كتب شاتوبريان ولوثي وشعر فيني وموسه.

فإذا كنت لم أمارس القصة فالذنب ليس بذنبي وإنما هو ذنب العصر الذي عشت فيه وذنب البيئة التي نأت فيها ولّما تقدم هذا العصر واشتدت مشاكله وكثرت مخالطتنا لأدب الافرنجة نشأت القصة فلم يبق العصر عصر جهاد وحده إنما أصبح عصر مشاكل اجتماعية لا غنى عن حلها.

كان بعض الأئمة في أول أيامي وفي العصر الذي سبقني ينفرون عن الرواية والقصة وحسبي أن اذكر منهم الشدياق وكرد علي.

أما الأول فقد كان يرى في الرواية سفسفة واتياناً بالغت وأما الثاني فقد كان يرى في القصة محض الاختلاق.

لا شك في أن هذين الأمامين لم يألفا الرواية والقصة ولم ينظرا إليهما من زاوية هذين النوعين الأدبين فالرواية ليس من الضروري أن تكون سفسفة أنها قد اتسعت للتاريخ ودراسة الأهواء ووصف الأخلاق وتحليل العواطف كما اتسعت للطبيعة وواقع الحياة والمثل الأعلى فالرواية إنما هي دراسة فيها صراع الأخلاق في بيئة واحدة أو في بيئات.

كما أن القصة ليس من الضروري أن تكون اختلاقاً فد تستنبط حوادثها من الحياة فيجهد القاص في التفتيش عن أصول هذه الحوادث وفي تصور عواقبها ثم في التفتيش عن تأثيرها في رجال آخرين وفي بعض الأوقات في المجتمع وقد تكون موضوعات القصة قانوناً من القوانين أو عادة من العادات أو حالة من الحالات فيجهد القاص في تصور ما يمكن أن يعمله هذا القانون وهذه العادة وهذه الحالة في أشخاص يخترعهم ذهنه اختراعاً.

وعلى هذا فقد اختلفت موضوعات القصة والرواية عن موضوعات المقال، لقد انتقلت الحياة من وجه إلى وجه فانتقلت الأفكار من وجه إلى وجه فإذا كان المقال صور الحياة البسيطة فقد

أصبحت القصة والرواية صورة الحياة المعقدة في أكثر نواحيها ولا بد في مثل هذا التعقيد من حل ووصف ولا بد في هذا الحل والوصف من أثر الفن وهنا تظهر مهارة صاحب القصة والرواية.

إني لا أريد التعرض للقصة والرواية في بلادنا فهذا خارج عن موضوعي، إني أروي قصتي الأدبية وأصف الأطوار التي تقلب فيها الأدب، إلا أني أغتنم الفرصة للكلام عن ناحية واحدة من القصة بحسب ما شعرت به وأنا أطالع بعض القصص.

لقد قرأت قصة من أربعين سنة عنوانها، طير القمر، أرسلها صاحبها إلى مجلة de Amnales في باريز ولم يذكر اسمه ولم يوسط أحداً في نشرها وقد أعجبت هذه القصة أصحاب المجلة بلفظها ورقتها فنشروها بعد أن مهدوا لها بمقدمة وجيزة.

ما أظن أن أحداً يطالبني بتلخيصها لأن روعتها قد تذهب بهذا التلخيص إلا أنه لا مناص لي من الإشارة إلى موضوعها: رجل من رجال المعهد في باريز، عضو في جمعيات علمية كثيرة، مختص بتاريخ آثار مصر وقع في حب راقصة من الراقصات، أما كيف كان يعيش هذا العالم وكيف وقع في حب الراقصة وما هي الأحاديث التي كان يساقطها إياها في الإجتماع فهذا روح القصة وإذا أمكن نقل الروح من رجل إلى رجل أمكن نقل روح هذه القصة من مقالها إلى هذا المقام.

تصور القاص موضوعه وحبك أطرافه أشد حبك، وقد أشفق

على بطله العالم في تضاعف القصة فلم يشأ أن يجعله هزأة، وإنما قدّر علمه ووقّر شيخوخته وجاراه في حبّه حتى آخر القصة إلا أنه لم يفارقه في الخاتمة دون أن يسخر منه ألطف سخرية وأشدها وقد جعل هذه السخرية على فم بائعة من بائعات الزهر، فقد حدث لهذه الراقصة حادث، فعلم الشيخ بهذا الحادث فعادها في بيتها وهي مستلقاة على الفراش ولّما ودّعها وانحدر إلى باب البيت صادف بائعة زهر في دكان فطلب إليها أن تنتخب كل يوم باقة من الأزاهير وأن تقدمها للراقصة وتكتب عليها هذه الكلمات: شاب معجب مخلص. ودفع إليها الثمن فوافقته البائعة على مراده ثم صحبته إلى باب الدكان وهي تلمح إلى ظهره المتقوس وقبعته المتثنية فهزت كتفيها وجمجمت في قفاه: رح يا مجنون؟!

القصة من أولها إلى آخرها تصوّر عشق الشيوخ من العلماء ومن هم في طبقتهم ولّما كان الحب كله جنوناً كان حب الشيوخ أشد هذا الجنون، لقد جمعت هذه القصة كثيراً من الفن وهذا ما حمل أصحاب مجلة de Amnales على أن ينشروها وهم من كبار الأدباء إلى أن المهارة كل المهارة في الكلمة الأخيرة، في هذه الكلمة التي قذفت بها بائعة الزهر، فهي القصة، هي لحمها ودمها وعظمها، فليست عبقرية القصة في الموضوع فالموضوعات كثيرة وليست في الطول والقصر، وإنما عبقرية القصة في روح صاحبها، وكما أن الشاعر يجعل من الأزاهير ربيعاً مطلقاً يكاد يتكلم وذلك

بلفظة واحدة كذلك القاص يجعل من قصته روعة بكلمة واحدة تلخص القصة أبلغ تلخيص..

إذا كنت لم أمارس القصة ومارست المقال للأسباب التي بسطتها فقد انصرفت إلى نوع آخر من الأدب لأن الحياة انتقلت إلى مهب جديد فانتقلت معها إلى طور جديد، وما هو هذا الطور الجديد الذي دخلت فيه، لقد اتصلت بأدب الإفرنجة بعد المرحلة الثانية التي أشرت إليها فوقفت على أساليبهم في دراسة الأدب وتدريسه، كنا في هذه الدراسة وهذا التدريس قبل اتصالنا بأدب الغرب نعنى بالبحث عن ميلاد الشاعر ووفاته، عن جزالة ألفاظه ورقتها وعن أشباه هذه الأمور، فلما وقع إلينا أدب الإفرنجة وجدنا أن أهم عنصر من عناصر الدراسة والتدريس في الأدب إنما هو التحليل، إنهم لا يقفون في الأدب عند ألفاظ بأعيانها أو عند ظواهر الأمور ولكنهم يتغلغلون في البواطن، فالدراسة عبارة عن الكشف عن نفوس غامضة أو واضحة، عن عواطف جليلة أو دقيقة، عن أسرار ظاهرة أو باطنة، إنهم يتخذون النص سبيلاً إلى معرفة الأشخاص، ولا يهملون في هذا كله لعناية بأمور الفن في دراسة النص.

كل هذا كنا نجهله في أدبنا، أو كنت أنا أجهله حتى لا أظلم أحداً، فلما درست المتنبي والجاحظ في أول كلية آداب أنشئت في هذه البلاد وذلك سنة ١٩٢٩ لجأت إلى أساليب الإفرنجة في الدراسة والتدريس.

إلى أي شيء أفضت بنا هذه الاساليب، إلى أشياء كثيرة لا يتسع لها مجال هذا الحديث أو هذه القصة، ولكن لا مندوحة لي عن ذكر يسير من هذه الاشياء، كنت أحفظ من المتنبي أبياتاً أعنى قبل كل شيء بألفاظها وظواهر معانيها، ولكني هذه المرة وجدت أن وراء هذه الألفاظ وهذه المعاني عالماً ملآن من الأسرار، لقد ظلمنا المتنبي كثيراً، وسنظلمه كثيراً، لأنا نظرنا إلى مجرد أماديحه ولم نستخرج الأسرار من وراء هذه الأماديح، لقد قرأت في كتب الإفرنجة أنه لولا «هوميروس» لما استطاع اليونان من بعده أن يغلبوا الفرس وإذا أضحى اليونان في القديم أكبر رجال البر في العالم فمرد بعض هذا الأمر إلى عبقريتهم في الشعر، لقد نمَّى الشعراء حوادثهم في شعر رائع نشأ عن الأساطير ثم نشأ تاريخ اليونان نفسه عن هذا الشعر، فإن الأسماء والصور والرموز والتقاليد التي ألّف بها شعراء اليونان بين قبائلهم هي التي خلقت اتحاد اليونانيين، فلما قرأت شعر المتنبي لم أنظر إلى أماديحه في سيف الدولة إلا سبيلاً إلى خلق البطولات في العرب فلم أهتم بتشبيهاته وإن غلا فيها وباستعاراته وإن اشتط في بعضها وإنما اهتممت بهذه الروح الجديدة التي فطنت إليها في شعره، روح البطولة.

وكما اهتديت في دراسة المتنبي إلى أشياء كثيرة في جملتها تصوير البطولة فكذلك اهتديت في دراسة الجاحظ إلى أشياء وافرة، إذا فتحنا كتب الأدب وجدنا نوادر الجاحظ ولم نجد من نبه في

هـذه الكتـب قديمهـا وحديثهـا علـى علـم الجـاحظ وعلـى فلسـفته في هـذا العلـم، ولم نجـد مـن نبّـه علـى لجوئـه إلى الاسـتعانة بـالحواس في معرفـة الحقيقـة ثـم علـى عدولـه عـن هـذه الطريقـة الـتي تخطـئ فيهـا الحـواس إلى طريقـة الشـك فقـد اتخـذ الشـك سـبيلاً إلى اليقـين، لم نجـد في كتب الأدب مـن نبّـه علـى هـذا كلـه ووازن بـين طريقـة الجـاحظ، وبـين طريقـة «بـاكون»وديكـارت، وهكـذا كنـت أنتقـل في الأدب مـن طـور إلى طـور، ومـن أفـق إلى أفـق لأن الحيـاة كـانت تنتقـل مـن طـور إلى طـور ومـن أفق إلى أفـق، مـن البسـاطة في ظواهرهـا والإنصـراف إلى أكلهـا وشـربها ولبسـها إلى الجهـاد في سـبيل حريتهـا وسـيادتها واستقلالها من عـرض الدراسـة في الأدب إلى جوهـر هـذه الدراسـة.

وهـذا دليـل آخـر قـام في ذهـني علـى أن الأدب والحيـاة متلازمـان، لقـد ظـل الأدب قبـل هـذه المرحلـة الثالثـة مـن حيـاتي الأدبيـة جـامداً، جافـاً، فلمـا اتصلنـا بـأدب الافرنجـة صـار الجمـود إلى الحركـة وإلى الطراوة والجفـاف.

مـا أظـن أن قصـتي الأدبيـة تتـم إذا أنـا لم أقحـم فيهـا الكـلام علـى الشـعر، لمـاذا مارسـت الشـعر وكيـف مارسـته، هـذا أمـر لا أزال أجهله، وكـل مـا يخطـر ببـالي في هـذا البـاب أنـي لمـا تركـت المدرسـة فاجأتنـا الحـرب الكـبرى الأولى فجـاش الشـعر في صـدري وأنـا علـى غير استعداد لـه، لأنـه يحتـاج إلى أشـياء كثـيرة غـير الأشـياء الـتي تهبهـا الطبيعـة، يحتـاج إلى امـتزاج بشـعر الكبـار مـن الشـعراء حتـى يـألف

الإنسان أساليبهم وحتى يتصرف في صورهم ولم يتيسر لي في أول الأمر شيء من ذلك، والعادة أن الشعر يجيش في صدر صاحبه لأمور تدخل فيها عواطفه الخاصّة، ولكن الشعر لما خطر ببالي كان يتصل بالحرب حوادثها فعملت أبياتاً أو قصيدة ولست أخجل من أن أقرَّ في هذا المقام بأنها أسخف ما يعمله إنسان من الشعر ومع هذا فإني لآسف كل الأسف على ضياعها لأنها ذكرى كريمة ثم انصرفت بعد ذلك إلى مطالعة شعر المتقدمين فألفت بعض الألفة مناحيهم حتى إذا همدت نيران الحرب احتاجت البيئة إلى تأجيج نيران ثانية، نيران الوطنية، فسيطرت البيئة عليّ فلم أستطع التملص من تأثيرها فجريت في شعري على لهيب هذه النيران ولمّا نشأ شعراء شباب وأخذوا يصورون في شعرهم ما يختلج في قلوبهم من مختلف العواطف لم يستطع هذا التيار أن يجرفني فبقيت في هذه الزاوية التي قبعت فيها ولا أزال في هذه الزاوية فإني أعتقد أن بيئتنا إذا احتاجت إلى النزاعات الوطنية في الماضي فإنها في هذا الحاضر أشد حاجة إليها فكأن الوطنية والقومية من خصائص أمتنا، ولا شك في أن من هذه النزعات إحياء ذكرى المتقدمين والمتأخرين من فحول شعرائنا ورجال وطنيتنا، فإذا أنا عملت شعراً في المتنبي والمعري وأبي تمام وشوقي ومطران فإنني أخضع هذا الشعر لبواعث قومية، لأن شعرائنا الكبار الذين ولدوا على اختلاف العصور روح القومية في الأمة فلا أرى غرابة والحالة على نحو ما وصفت أن أبدأ بالشعر القومي وأن أستمر فيه حتى هذه الأيام،

على أن الشعر قد خُلق لأشياء كثيرة، إنه يعبر عن أفراح البشرية وأحزانها، عن آلامها ولذاتها إنه صدى النفوس التي تذوق مرارة الفقر والمرض والجهل إنه عزاء البشرية، إلا أن غايات الشعر تختلف على اختلاف بيئاته، وبيئتنا على ما يظهر لا تزال تأنس

بالشعر القومي، فإذا أقيم من حين إلى آخر مهرجان للشعر فإن الشاعر الذي يدوي شعره في النفوس إنما هو الشاعر الذي يتغنى بآلام الأمة وعلى رأس هذه الآلام نكبة فلسطين.

إني أعتقد أني بعد أن قصصت ما قصصت من حوادث أدبي قد انتهيت إلى اشتباك هذه الحوادث ويتلخص هذا الاشتباك في المعركة التي تدور رحاها في الأدب من ثلاثين سنة وأكثر وقد وقع مثل هذه المعركة في أدبنا في العصور الماضية بين ما كانوا يسمونه المتقدمين والمتأخرين أو الأوائل والأواخر ثم غيّر هذا الاسم في عصرنا، فدارت المعركة بين القديم والحديث ثم أطلق على رجال المعركة اسم الشيوخ والشباب وأخيراً اتفقوا والحمد لله على أن يسموها: معركة التقدميين والرجعيين.

لا أرى بأساً بأن أرجع بضع دقائق إلى الماضي البعيد حتى نرى رأي رجال أدبنا في هذا النوع من الحرب الهادئة التي لا تسفك فيها دماء، ولا تطير فيها جماجم، وإني لا أكتفي بأقوال رجل واحد في هذا المعنى فإن قوله يلخص ثورة أدباء الماضي على أدب المتقدمين. قال أبو الحسين أحمد بن فارس: «ومن ذا خطر على

المتأخر مضادة المتقدم، ولمه تأخذ بقول من قال: ما ترك الأول للآخر شيئاً وتدع قول الآخر: كم ترك الأول للآخير، وهل الدنيا إلا أزمان، ولكل زمان منها رجال، وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة إلا خطرات الأوهام ونتائج العقول، ومن قصر الآداب على زمان محدود ووقفها على وقت محدود، ولمه لا ينظر الآخر مثل ما نظر الأول حتى يؤلف مثل تأليفه، ويجمع مثل جمعه ويرى في كل ذلك رأيه، وما تقول الفقهاء زماننا إذا نزلت بهم من نوادر الأحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم، أو ما علمت أن لكل قلب خاطراً ولكل خاطر نتيجة، ولمه حجرت واسعاً وحظرت مباحاً وحرمت حلالاً وسددت طريقاً مسلوكاً، وهل حبيب إلا واحد من المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم ، ولما جاز أن يعارض الفقهاء في مؤلفاتهم وأهل النحو في مصنفاتهم، والنظار في موضوعاتهم، وأرباب الصناعات في صناعاتهم، ولم يجز معارضه أبي تمام في كتاب شذ عنه في الأبواب التي شرعها فيه، أمر لا يدرك ولا يدرك قدره ولو اقتصر الناس على كتب القدماء، لضاع علم كثير ولذهب أدب غزيرولضلت أفهام ثاقبة، ولكلت ألسن لسنة، ولما وشّى أحد خطابه، ولا سلك شعباً من شعاب البلاغة ولمجتّ الأسماع كل مردّد مكرر وللفظت القلوب كل مرجّع ممضغ.

أظن أنه لو اجتمع كل المجددين في هذا العصر وأحبو أن يأتوا

ببراهين قاطعة على ضرورة تجديدهم لما جاءوا بصفحة أبلغ من هذه الصفحة، لقد استشهدت بها من ثلاثين سنة وقلت في التعليق عليها:

أن عقل البشر ينبسط أفقه من عصر إلى عصر، ويتسع مجاله من دهر إلى دهر، فيولد في انبساط هذا الأفق وإتساع هذا المجال ألفاظاً ومعاني لم تك من قبل وينشئ الأدب لهذه المعاني أساليب طريفة، ويفرغها في قوالب حديثه، وعلى هذا ينتقل الأدب من طور إلى طور ويدرج من حال إلى حال على تعاقب الأحقاب ولو ثبت هذا الأدب على أساليب محدودة لأتى عليه حين من الدهر.

لم يك فيه شيئاً، ولو تملص هذا الأدب من عوامل الحضارات والثقافات لما وسع شيئاً إننا نجد مذاهب تولد ومذاهب تموت، وألفاظ تدفق وألفاظ تبعث، وأساليب تعيش وأساليب تنقرض. ما أعظم انقلابات الأفكار.

وها أنذا أعود بعد ثلاثين سنة إلى قولي نفسه فلا أعدل منه شيئاً فلست أرى في المعركة التي تشتد حيناً وتخف حيناً بين أصحابها خروجاً على الطبيعة أو انحرافاً عن سنتها فهي تقع في كل العصور وفي كل الأمم، فقد وقع مثلها في الأدب الافرنسي في القرن السابع عشر، وكان اسمها معركة المتقدمين والمحدثين كانت أماني المحدثين أن يكون لمعاصريهم الحق الصريح في أن يعتقدوا من حيث المبدأ أنهم ليسوا على درجات أحط من درجات كتّاب القديم.

لا بأس بهذا كله، أن فكر البشر لا يثبت على حال فهو كريشة في مهب الريح، فقد ينشأ مذهب عصر من العصور ثم يأتي عصر فيعفي عليه ويطلع بمذهب جديد، فالتفكير الذي يظل على حال واحدة على اختلاف العصور إنما مثله كمثل الماء الراكد في المستنقع.

والتفكير في بلادنا لم يثبت على حال فقد اتصلنا بالغرب اتصالاً وثيقاً فلم نستطع أن نتخلص من بعض آثاره ولم نستطع أن نهرب من بعض مذاهبه في الأدب وغير الأدب، إني أمر على أسماء هذه المذاهب مروراً بحسب ما اصطلحوا عليها فهناك ما سموه الإتباعية والرومانسية والواقعية والرمزية وما فوق الواقعية والوجودية المعاصرة والواقعية الحديثة والأدب الهادف.. أسماء فيها الخير والبركة والحمد لله، ولسنا ندري ما يطلع علينا المستقبل القريب أو البعيد من أسماء جديدة لمذاهب جديدة. كل هذا لا بأس به وإنما البأس كل البأس بتغيير روح اللغة وعبقريتها في ولادة المذاهب الجديدة ونشوئها، إن أحمد بن فارس وهو حامل لواء المجددين في القديم لما ثار ثورته العنيفة على المتقدمين لم يثر مثل هذه الثورة على لغة العرب، لقد حافظ على هذه اللغة، حافظ على طبعها وذوقها وكان يقدس هذا الطبع وهذا الذوق، هذا هو الفرق بين تجديده وتجديدنا، إننا نجدد، ولكن تجديدنا لا هو شرقي ولا هو غربي، ولا هو عربي ولا هو أعجمي، قد نغرق في مذاهب الإفرنجة

فننحرف عن مذاهب لغتنا ولا نفطن إلى أسرار الفن فيها فنتيه في بيداء لا نعرف أولها ولا آخرها وإذا انحرفنا عن هذه المذاهب ضعنا وضاعت لغتنا، إننا نعيش في عصر تكاد القومية تكون فيه شعارنا وأظنا إن اللغة إنما هي شعار هذه القومية فإذا أضعنا روحها وعبقريتها بين مهاب المذاهب الحديثة أو إذا ضعنا نحن في تضاعيف هذه المذاهب فماذا يبقى لنا من القومية؟

لقد ثرنا في أدبنا على أشياء كثيرة ولا سيما على الشعر فقلنا أن شعر المتقدمين لا يصلح لروح العصر الذي نعيش فيه، ولا شك في أن لكل عصر روحاً خاصة به، فالشعر الذي قيل في فيافي البدو لا يقال في قصور الحضر، فإن شعر سقط اللوى والدخول وحومل لا يناسب قصور بني العباس في بغداد وبني أمية في الأندلس، ولهذا نجد من عصر إلى عصر مجددين في الشعر ولقد شهدت عصورنا كثيراً من هؤلاء المجددين وعلى رأسهم أبو تمام لكن شعره الجديد لم يقتبس روحه من الهند أو فارس أو الاغريق، إنه شعر عربي قبل كل شيء، لقد خلع على اللغة ثوباً قشيباً لا عهد لها به من قبل، فقرن ألفاظاً بألفاظ لم يكن بينها تقارن، وألف بين صور وصور لم يكن بينها تآلف، إلا أنه جرى على طبع اللغة وذوقها فجاء شعره عربياً حراً نقياً لقد تصرف في ألفاظ اللغة وأساليب مجازها تصرفاً عبقرياً فإذا أضاف لفظاً إلى لفظ فلا نشعر بتنافر اللفظين وإذا مزج صورة بصورة فلا نحس بتباعد الصورتين.

هـذا مـا نفهمـه مـن روح التجديـد وإذا كنـا نعيـش في عصـر يـرى فيـه بعضهـم أن شـعر المتقدمـين لا يصلـح لروحـه فـإني أول مـن ينتظـر الشعر الجديـد لأؤمـن بهـا إلا أنـي لا أؤمـن إلا إذا وجـدت في قلائـده مـا يفـوق قلائـد المتقدمـين إن الأصـل في الفـن كلـه، قديمـه وحديثـه إنمـا هـو الابتـداع أمـا إذا كـان الشـعر الجديـد ضربـاً مـن الألغـاز والأحـاجي فـأظن أن العقـول غـير مسـتعدة للتعـب في فـك هـذه الألغـاز وهـذه الأحـاجي وحسبها مـا تعانيـه مـن متـاعب العصـر فهـي لا تحتـاج إلى متـاعب ثانيـة.

على أنـي إذا أملـت شيئاً فـإني آمـل أن لا تبـاعد هـذه المعركـة الـتي رمـزت إليهـا بـين رجـال المذهبـين إن الأدب لم يخلـق للتبعيـد وإنمـا خلـق للتقريـب، خلـق لجمـع الشـتات وغـرس المحبـة، ومـا أظـن أن هـذه المسـافة بـين مـا نسـميه الشـيوخ والشـباب مترامية الأطـراف، إنهـا مسـافة مصطنعـة لا ينبغـي لهـا أن تمتـد بـين المتقدمـين والمتـأخرين أو الأوائـل والأواخـر أو القديـم والحديـث أو الشـيوخ والشـباب أو التقدميين والرجعيين، صلـة قويـة الأسـباب لا يسـتطيع أحـد أن يخربهـا إنهـا صلـة اللغـة، صلـة الـذوق والشـعور والفكـر وقـد تختلـف الأذواق ويتبـاين الشـعور. ويتبـاعد الفكـر ولكـن اللغـة واحـدة فهـي الـتي تؤلـف بـين المختلفـين وتقـرب بـين المتبـاعدين، فليفـرغ الفكـر والـذوق والشـعور في صيـغ مختلفـة، الأصـل في هـذا كلـه إنمـا هـو روح اللغـة فـإذا حافظنـا علـى طبـع هـذه اللغـة محافظـة المتقدمـين وآمنـا بذوقهـا

إيمانهم وأخلصنا المحبة لعبقريتها وإخلاصهم فلا خوف علينا يومئذ.

أما الخلاف نفسه بين المذاهب فأظن أنه خلاف في الألفاظ لا في المعاني، لأن ما نسميه قديماً في عصرنا هذا كان جديداً بالنسبة إلى العصر الذي ظهر فيه وما نسميه جديداً في أيامنا هذه سيصبح قديماً بالنظر إلى الآيام الآتية فإن الحياة في تطور مستمر، لا يبقى فيها شيء على وضعه، فالتفكير قد يتبدل والموضوعات قد تتبدل، والاتجاه قد يتبدل، إنما الشيء الوحيد الثابت الذي لا يجوز له أن يغرق في مهاب التطور إنما هو روح اللغة نفسها، قد تتبدل من عصر إلى عصر وإنما روحها تظل عربية حرة نقية على ممر العصور.

وأخيراً سواء أعالجنا المقال أم عالجنا القصة والرواية وسواء كنا نمارس الشعر القومي أم كنا نمارس الشعر الغنائي، وسواء أكنا من المتقدمين أم كنا من المتأخرين إن الأدب في هذه الحالات كلها لا يعيش ولا تتفتح أزاهيره إلا في ظلال الحرية.

من خمس وثلاثين سنة اقتنيت كتاباً اسمه: الكاتب العام، صاحبه من رجال الأكاديمية في باريز عدت من أسابيع إلى قراءة فصول هذا الكتاب، فمررت بهذه الفكرة في أحد فصوله، لقد اقترح ناد من أندية الكتاب على جمعية الأمم أن تنشيء جائزة لمن يعمل كتاباً ذا قيمة رفيعة، يبث فيه مؤلفه أفكاراً عامة تنتفع بها كل الأمم

كالإيمان بالرجل والكمال الخلقي والعقلي ورفاهية البشر.

لقد رأى مؤلف الكاتب العام في أمثال هذه الجمل لغة رفيعة من حيث المبدأ إلا أن عواقبها غير محمودة لأن إجبار الكاتب في رأيه على تضمين كتابه أفكاراً تملى عليه أملاءً إنما هو تقييد لوحية وإلهامه، ولم أستشهد بكلام هذا الكاتب وأختم به قصتي الأدبية إلا لأبين أن تقييد الحرية في الأدب إنما هو تقييد للعبقرية حتى ولو كان هذا التقييد في موضوعات خُلقية أو إنسانية، إن عاطفة الشاعر لا تتدفق إلا في أفق ملآن من الحرية وكذلك عبقرية الكاتب، فالتقييد يقضي على عواطف الشعراء وعبقريات الكتاب.

عميد كلية الآداب يقول:
مازال أدبنا بعدياً عن تصوير حياتنا

وقد أجاب الأستاذ شفيق جبري على الأسئلة الثلاثة فقال حول «هل يمكننا تعيين بدء نقطة التحول في أدبنا السوري المعاصر؟»:

ج .. يرى فريق من اصحاب التأريخ الأدبي أن الأدب الحديث يرجع أول أمره إلى دخول نابليون مصر، ويرى فريق آخرون أن الأدب الحديث نشأ قبل دخول نابليون مصر وليس في هذين الرأين شيء من الشطط.

فضل البعثات والرحلات على الأدب

مهد نابليون في مصر سبيلاً إلى تفتيح العقول على الرغم من أن غايته كانت الإستعمار فإن مجيء العلماء معه قد أبقى آثاراً في نواحي الفكر إلا أن آفاق هذا الفكر لم تنبسط إلا في زمن محمد علي لإتصال مصر بالغرب عن طريق البعثات والرحلات، وليس معنى هذا أن الأدب لم يكن له ظل في مصر قبل نابليون إلا أن هذا الأدب كان ضعيفاً ومن مظاهر ذلك الأدب تلك البلاغات التي كانت تصدر من قبل العلماء على أيام نابليون فالغالب عليها

السجع السخيف وليس من وراء هذا السجع فكر مختمر ولعل تاريخ الجبرتي من اقوى مظاهر الأدب في ذلك العصر.

وقد اهتديت إلى نماذج من مراسلات شرفاء مكة على عهد نابليون تكاد تكون من العامية وكذلك مراسلات من قبل سلاطين مراكش فالأدب قبل نابليون أو قبل محمد علي كان زخراً مفككاً.

الآثار الحديثة في الفكرة والفن

والذين يرون أن الأدب الحديث نشأ قبل دخول نابليون مصر ليس في رأيهم شيء من الإنحراف عن الصواب ففي سورية ولبنان نشأت مدارس أجنبية قبل نابليون وكان لهذه المدارس فضل في استفاقة العقول من مراقدها فتعلم أبناء البلاد اللغة الفرنسية ثم اللغة الإنكليزية واطلعوا على شيء من أدب الفرنسيين والإنكليز واقتبسوا عن هذين الأدبين فنقلت روايات من القرن السابع عشر الفرنسي إلى اللغة العربية ومن جملة الذين نقلوا هذه الروايات أديب أسحق وانطلقت الأقلام في موضوعات الإجتماع فكتب الكتاب في الحرية والأخلاق وغير ذلك ثم سافر فئة من رجال الأدب والفكر إلى أوربة فاشتد اتصال الشرق بالغرب وانعكست على كتابات بعض الأدباء آثار الغرب ومن أبرز الذين ظهرت على كتاباتهم آثار الرحلات أحمد فارس الشدياق.

هذا رأي لم أتوخ فيه ضبط التأريخ دقته وإنما توخيت فيه التصريح بأن أول الأدب الحديث يرجع في الأغلب إلى اتصال بلاد

الشام ولبنان ومصر بأوربة أما عن طريق المدارس وإما عن طريق الرحلات فهذا الإتصال هو الذي أدخل على الفكر والفن آثار حديثة.

وكان جوابه على السؤال الثاني: «إلى أي حد يستمد أدبنا من حياتنا» ما يلي:

ج – إني أرى أن أدبنا ما زال بعيداً عن تصوير حياتنا على أن هذا الأدب قد اتصل في زمن من الأزمان بناحية من نواحي هذه الحياة، وهي الناحية الوطنية فأكثر الشعراء الذين نشأوا بعد جلاء الترك عن سورية تغنوا بحرية البلاد واستقلالها فعبروا عن الشعور الوطني واستحثوا الناس في شعرهم على مقاومة الأجانب وقد امتد هذا التغني حتى جلاء الفرنسيين عن سورية ثم نشأ شعراء منى الشباب غلب على شعر طائفة منهم شيء من الشعر الوجداني فيه كثير من الكآبة والقلق، وغلب على شعر طائفة آخرين شيء من النزعة الإنسانية فيها شيء من الشفقة على الفقير والضعيف.

وما خلا ذلك فإن الشعر ما يزال بعيداً عن التغلغل إلى الحياة ولا سيما عواطفها فليس في شعرنا من تحليل الأهواء والعواطف ما نراه في شعر كبار شعراء الفرنجة مثل شكسبير في الإنكليز وراسين في الفرنسيين.

الرجوع إلى الماضي وترك الحاضر

أما النثر فلم تنتشر الروايات والقصص التي تحلل حياتنا تحليلاً

دقيقاً فلا أكاد أعرف في سورية رواية حديثة حلل صاحبها ناحية من نواحينا ما خلا روايات الأستاذ معروف الأرناؤوط التي رجع فيها صاحبها إلى الماضي ولم يتصل بالحاضر.

أما القصص التي تنشر فأكثرها مجرد من الفن ومن الفكر، فما زلنا نعتقد أن القصة عبارة عن حكاية نحكيها نحشر فيها كل شيء ولا أثر فيها لشيء من معرفة علم النفس تعيننا على الاتصال بأسرار الأهواء والعواطف، ولا أثر فيها لشيء من معرفة علم الاجتماع تعيننا على تصوير حياتنا الاجتماعية.

على أني لا أرى مندوحة من التنويه ببعض قصص السيدات وفي مقدمتهن السيدة سلمى الحفار والسيدة ألفة الأدلبي فقد تغلب على قصصهما بساطة القصة وطبعها وقربها من الواقع وهي قصص تشتمل على وصف بعض آفاق من حياتنا الاجتماعية كالزواج وغيره.

وأجب على السؤال الثالث: «هل يمهد أدبنا للثورة الاجتماعية؟..» بما يلي:

ج - إذا كان رأيي أن أدبنا ما زال بعيداً عن تصوير حياتنا فمعنى ذلك أن أدبنا لا يمهد لشيء اسمه ثورة اجتماعية، ثم ماهو المقصد من قولنا ثورة اجتماعية. أهي ثورة الطبقات الفقيرة على الطبات الغنية! أم هي ثورة الأغنياء على الفقراء، أم هي ثورة على أوضاعنا الاجتماعية كلها، على ملكية الفرد، على توزيع الثروة،

على الإستئثار بمرافق الحياة فإن هذا السؤال يحتاج إلى بعض التوضيح.

أدبنا لا يمهد للثورات

وعلى كل حال إن أدبنا لا يمهد لشيء من هذه الثورات المختلفة فأين الروايات أو القصص التي تصور فقر الفقراء أو غنى الأغنياء أو ضعف الضعفاء أو استئثار المستأثرين، فإن الثورات الاجتماعية عادة تكون نتيجة لثورة أدبية كما كان الأمر مثلاً في فرنسة فالثورة الفرنسية كانت نتيجة كتابات فولتير وروسو ومونتسكيو وأمثالهم.

فأين كتابنا وشعراؤنا الذين يمهدون لمظاهر الثورة الاجتماعية؟

فالأدب في هذا المعنى لم يفعل فعله بعد، ولكن الذي أراه أن عقول الشباب تستعد لهذه الثورة عن طريق غير طريق أدبنا فقد اشتدت قراءة آثار بعض كتاب أوروبة وروايتهم التي كثرت استفاضتها بين ظهرانينا فالثورة الاجتماعية إذا انفجرت في يوم من الأيام أو إذا شرعت تتفجر فهي لم تكن بنت أدبنا وإنما هي نتيجة التطور الحديث في العالم وفي بلادنا خاصة

في منابت الشيح
ربيع الغوطة

نعم إننا لم نتعلم حب الوطن، ولكني لا أريد الترسل في هذه النغمة، فقد لا يكون وقعها حسناً في الآذان، لأنها كلمة حق، والحق مر في كل زمان، فلنعجل في الخروج إلى هذا الوطن الذي لم نتعلم حبه، ولنتعرف إلى أرضه وسمائه، ولنستلهم هذه الأرض وهذه السماء صوراً إن لم تشتمل على شيء من البهجة والرونق فإنها تشتمل على كثير من المجد والفخر، وأي مجد أروع من أن يخرج قوم من ظلمات الصحراء، أصحاب إبل وغنم، وسكان شعر وأدم، فتخضع لسيوفهم أبعد الأمم مذاهب في الحضارة والثقافة حتى أصبحوا في أسرع من طرفة عين أحاديث على فهم الدنيا، وخواطر على بال الأيام، فما لبثت هذه الأحاديث أن خفتت وهذه الخواطر أن همدت، وتلك الأيام نداولها بين الناس، ومن يدري فقد تطلع على الدنيا هذه الصحراء الكامدة بمثل ما طلعت عليها في الماضي، ولعل هذه الأماني التي لمستها في شعر شباب مكة، وكلها تفيض بمعنى واحد وهو: وحدة العرب، لعل هذه الأماني يحققها الله، فقد أصبح قتل الأمم على نحو ما قال «فيكتور

هوغـو» متعـذراً، مثـل الحـق في هـذه الأرض كمثـل الشـمس في السماء، تكسف حيناً ثم يسطع نورها تحيى الشعوب ويموت الاستبداد: سنة لله في خلقه.

فلنعجل في الخروج إلى هذا الوطن، ولنتغلغل في هذه الصحراوات التي كانت لنا في قديم الدهر حصناً حصيناً، ولكن هل تمر بنا السيارة على قرى الغوطة في ٨ آذار وهل نشهد رفيف الربيع على كل بقعة من بقاعها، على عشبها وعلى سنابلها وعلى مشمشها، وعلى جوزها، وعلى زيتونها، وعلى حورها، وعلى ضفافها، هل نشهد نسيم الضحى يناغي كل غصن من أغصانها وكل زهر من أزاهيرها، وكل سنبلة من سنابل زرعها، وهل نسمع موسيقى الماء بين حورها وصفصافها، وبين عشبها وشقائقها من دون أن نزود آذاننا من هذه الموسيقى، وعيوننا من هذه الخضرة، وآنافنا من هذا الأريج، وإذا كان ذاك النجدي تمتع من عرار نجد قبل سفره خوفاً من أن يفوته هذا العرار بعد العشية فما أخلقنا أن نتمتع من هذه المحاسن كلها قبل أن نعرف عرار نجد وعرفج الدهناء.

ولقد كنت قبل السفر أخرج إلى الغوطة في كل يوم وأمتع الحواس بكل قطعة من قطعها، فاملأ الأذن من سقسقة عصافيرها ومن نقيق ضفادعها ومن قسيب مائها ومن حفيف شجرها، وأملأ العين من خضرة سنابلها وحمرة شقائقها، وبياض أزاهيرها وأستند

إلى هذا الجوز النابت على شواطئ مائها، فو الله لم أشبع من منظر من مناظرها، لا من هذه السماء التي تحجبها خضرة الشجر فلا ترى منها إلا قطعاً مبعثرة، ولا من هذه الغنم وهذه المعزى وهي ترعى بمرأى مني فأستأنس بثغائها ويعارها، ولقد شهدت الطبيعة في بلدان كثيرة من أوربة فشهدتها على رؤوس الجبال وعلى صفاح الجبال وشهدتها من أوربة فشهدتها على صفحات الماء وعلى سهول مديدة، وتلال شجيرة، أما مثل هذه الغوطة الغناء التي أجتمع شجرها بعضه إلى بعض، وتكاثف زرعها بعضه فوق بعض حتى أصبحت كأنها روضة واحدة، أما مثل هذه الغوطة فلم تر عيني في كل ما زرته من بلاد أوربة ولم أعرف نعمة الغوطة ولم أقدر فتنتها حق قدرها ولم أشعر بسحرها إلا بعد أن بعدت، عنها فلم نر بعد هذا البحر الأخضر إلا بحراً من رمل أو من تراب أو من وعر.

غير أني أمر بهذه المحاسن كلها فلا أتزود منها لأن صور الغوطة لا تصحبني بعد أن أخرج من ضمير دقيقة واحدة، ولكني أتزود من صورة واحدة تصحبني في الصحراء، وتملأ نفسي الدهر كله، هذه الصورة إنما هي صورة سنديانة نبتت في قرية من قرى الغوطة، في «زملكا» ورمت ظلالها على مقبرة هذه القرية، فما أحبت أن تحرم أبناءها هدوء الفيء بعد موتهم، وقد عاشوا كل أيامهم في هذه الأفياء الهادئة، على قشر هذه السنديانة آثار كثيرة لا

تخطر ببالك، إنها آثار مدافع وطيارات، ودبابات، ولكن هذا كله لم يقتل السنديانة فقد بقي أصلها في الأرض وفرعها في الماء، ففي كل يوم يزداد نموها فإن أبناءها الذين عطفت عليهم بعد موتهم فأظلتهم أغصانها عطفوا عليها في قبورهم، ففذتها عظامهم البالية، فما حرموها غذائها ولا حرمتهم ظلها، إن صورة هذه السنديانة تغمر في العمر كله لأنها صورة دمشق نفسها، فقد نابت دمشق نوائب وأصابتها مصائب وبقيت خالدة على الرغم من نوائبها ومصائبها، ترمي ظلالها على الأحياء من أبنائها وعلى الموتى منهم، وغذاؤها مثل غذاء السنديانة يغذيها تراب بقاع من أرضها ملئت من عظام أضاحيها ورويت من دم هذه الأضاحي ولهذا خلدت دمشق على وجه الدهر لأنها بنت الماضي البعيد، مرت عليها أحقاب طويلة ثم انطوت هذه الأحقاب وبقيت دمشق وحدها.

هذه آخر صورة أخرج بها في ٨ آذار من دمشق، قد لا أجد فيها موسيقى تلهو بها العين، ولكنني أجد في طيها معنى ينمو به فكر وطني وشعور وطني، وعاطفة وطنية وما أشد حاجتنا إلى مثل هذا الفكر وهذا الشعور وهذه العاطفة فسلام على دمشق يوم ولدت ويوم تخلد على وجه الدهر!

حول مقال خواطر وآراء
يثيرها كتاب وحي العصر

أعجبني مقال الأستاذ محمود سيف الدين الإيراني وعنوانه خواطر وآراء يثيرها كتاب وحي العصر.

إن هذا المقال ملآن من التفكير، والحقيقة أن أدبنا لا يزال في عزلة عن حياتنا الخاصة والعامة، خذ لك مثلاً ناحية من نواحي هذه الحياة، ناحية الشعور الوطني، فإن أدباءنا لا يتعرضون لأوطانهم في أدبهم، فهم لا يتغنون بأرضهم ولا بسمائهم ولا بجبالهم ولا بسهولهم ولا بأنهارهم ولا ببحارهم، ولست أدري كيف تريد مصر أن تسلم من الإنكليز وأدباؤها إلى اليوم لم يحببوا إلى المصري نيله وأهرامه وأريافه ونخيله، ولست أدري كيف نريد أن نسلم من شر الفرنسيين في الشام ومن شر الصهيونية في فلسطين ونحن لا نفكر في الامتزاج بكل جزء من أجزاء هذا الوطن الكريم، وأقسم أن هذا الوطن فتان بطبيعته، فقد أقمت بجزءٍ منه في سنة ١٩١٣ فأقمت بيافا الساحرة وكنا أربعة نستظل كل يوم بظل بياراتها ونملأ عيوننا من التفاف شجرها ونملأ أذاننا من موسيقى

بركها، ونضطجع على رملها وكأنه أرائك من حرير ناعم، ولقد طفت أماكن غير قليلة في أوربة، فرأيت طائفة من ريف انكلترة وفرنسة وسويسرة وإيطالية ولست أبالغ في القول إذا قلت إني لم أر في هذا الريف كله شجراً ملتفاً التفاف البرتقال في يافا، فإن هذه المدينة نسيجة وحدها ببياراتها وبركها وبرتقالها وبحرها ورملها ما يسمونه في الأدب الغربي: لون محلي أو طابع محلي، نعم كنا أربعة نملأ أنفسنا من هذه المشاهد الرائعة فلا تكاد تفارق ذهني صورة يافا، فأنا أمر بها كل سنة بوجه التقريب، فأزور فيها قبوراً عزيزة عليّ وهي قبور جدي ووالدي وأخي وأتمتع بهذا الشجر الملتف الذي كنت أتمتع به في حدائق السن. فأرجع إلى اثنين وعشرين سنة وأنعم بهدوء البال الذي كنت أنعم به في تلك الأيام الطيبة، إني أعتقد لو تعلمنا حب هذا الشجر المتشابك وحب هذه البيارات وهذه البرك وهذا الرمل وهذا البحر وتسلسل فينا هذا الحب أحقاباً لما سهل على أي صهيوني أن ينزع منا شبر أرض، ولما سهل على أي انكليزي وعلى أي افرنسي أن يزاحمنا على بقعة من بقاع الشام وفلسطين ومصر، والغريب أننا حتى اليوم لم نفكر في هذا المذهب الأدبي، أي مذهب الشعور الوطني، فكأن مرارة المستعمرين لم تؤثر فينا بعد وهي مرارة أليمة، ففي باريز: إذا قلعوا شجرة مغروسة في شارع من شوارعها عمرها ثلاثة أو أربعة قرون، قاموا وقعدوا من أجل هذه الشجرة، وقالوا: إنها شهدت فلاناً من

القـواد وفلانـاً مـن الشـعراء، فيجعلـون لهـذه الشـجرة حيـاة، هـذا هـو الشـعور الوطـني الـذي لا تؤثـر فيـه نـيران المدافـع، ولقـد حضـرت في أثنـاء مـروري ببـاريز روايـة في «كـازينو دي بـاري» فيهـا فصـول مختلفـة ولكـن الفصـل الـذي لا أنسـاه إنمـا هـو تغـني أهـل القـرى وأهـل الجبـال وأهـل السـهول بـأرضهم، فكنـت تـرى الراعـي يرقـص رقصـة الرعيـان ويتغنى بمراعيه، وكنت تـرى العنَّـاب يتغنـى بعنبـه وبكرومـه، وكنـت تـرى سـاكن مرسـيلية يتغنـى ببـلاده ويفـاخر بلهجتـه الخاصـة وينشـد الأشـعار في تـأييد هـذه اللهجـة وكذلـك أهـل الجبـال وأهـل السـهول فكلهـم كـانوا يتغنـون بوطنهـم الأصغـر المتمـم لوطنهـم الأكـبر.

إنـي لا أنسـى هـذه اليلـة الـتي قضيتهـا في «كـازينو دي بـاري»لأنهـا علمتـني كيـف يكـون حـب الوطـن ونبهتـني علـى تقصيرنـا في هـذا البـاب.

تيسـر لي في الربيـع المـاضي أن أضـرب في منـابت الشـيح والقيصـوم أي في صحـراوات العـراق ونجـد والحجـاز وبعـد أن خرجـت مـن دمشـق تـراءت لي كآبـة الباديـة فـلا خضـرة تبهـج العـين ولا مـاء ينقـع الغليـل، لقـد كنـت أجـد بـدلا مـن هـذه الخطـرة وهـذا المـاء شمسـاً يصهـر الوجـوه جواهرهـا أجرهـا وسمـاء كـامدة اللـون كئيبـة الأديـم ينعكـس كمدهـا وكآبتهـا فـوق الوجـه فـتزداد النفـس انقباضـاً، فمـن باديـة الشـام إلى جبـال مكـة لم أجـد إلا صحـراوات ملئـت مـن تـراب أو مـن

وعرٍ أو من رمل، ومع هذا كله فإن العرب في قديم الدهر تعلقوا بكل جزء من أجزاء هذه البوادي مهما يكن من كمدى سمائها وتقطيب أفقها وحر هواجرها ومحرمي أرضها وجبالها ووحشة كل بقعة من بقاعها، ولقد فاضت في شعرهم العاطفة الوطنية.

أفلم يبك أمرؤ القيس على منازل فارقها بسقط اللوى، أفم يستبك صحبه على هذه المنازل، أفلم يقل لنا أن برءه من دائه كان بدمع يصبه على الرسوم الدارسة، أفلم يتغن بهذه الطبيعة الكامدة الكئيبة، وينفخ فيها روحاً حتى لتكاد تتكلم، أفلم يحيي بشعره وميض برقها وغزارة سحابها وعظيم دوحها ونخيلها وأطامها، إنه تغنى بهذا كله وحن إلى هذا كله واتصل بأرضه وسمائه وارتبط بهما واستأنس بكل ما وقعت عليه عينه في هذه الأرض وتحت هذه السماء من حيوان وطير ونبات فكان في شعره حس وطني على مصطلح هذا العصر فالوطنية إنما هي ارتباط المرء بأرضه وبسمائه وبسهله وبجبله وبحيوانه وبنباته حتى يكون جزءاً من هذا الوطن وحتى يكون الوطن جزءاً من نفسه.

وما أقوله في امرئ القيس أستطيع أن أقوله في إخوانه طرفة ولبيد وعنترة وغيرهم، فكأن شعراءنا في القديم كان فهمهم للأدب أحسن من فهمنا له في هذا العصر، كأنهم كانوا يعرفون أن الأدب أشد الأشياء تقديساً وهو الوطن!

هـذه خواطر أوحاها إليَّ مقال الأستاذ الإيراني الملآن من التفكير كما قلت، وقبل أن أقرأ هذا المقال الناضج كنت أنعم بمطالعة فصلٍ من فصول «أناتول فرانس» البليغة يتغنى فيه بنهر «السين» الذي يجري أمام داره وقد رأيت هذه السين، وهذه الدار، فمتى أقرأ في أدبنا مثل هذه الفصول الناطقة، ومتى أرى في هذا الأدب صورة وطننا!

الفرق بين أسلوب الأديب
وأسلوب الصحفي

هل من فرق بين أسلوب الأديب وأسلوب الصحفي، فكرت قليلاً في الأمر وقلت في نفسي: هل يستغنى أسلوب الصحفي عن روح الأدب، أفلا يجب على هذا الأسلوب أن تظهر عليه آثار الأدب، وذهبت بعد هذا التفكير إلى أن الصحافة لا بد لصاحبها من روح أدبية، وأظن أن رجال الصحافة الذين نجحوا في صناعتهم إنما هم الذين رزقوا من الأدب حظاً غير يسير.

وقبل أن أشرع في توضيح فكرتي لا أرى بأساً بالإشارة إلى أني عالجت الصحافة في فاتحة أمري وأدركت مواطن الخطأ في معالجتي، فقد كنت أهتم في حداثة سني بالتفتيش عن لفظ ضخم أضمنه مقالي إعتقاداً مني أن ضخامة هذا اللفظ تزيد في ضخامة منزلة الكاتب وبقيت على هذا الاعتقاد بعض الزمن ولكني لما تقدمت في السن والمطالعة ذهب أثر هذا الاعتقاد وأصبحت أومن بأن اللفظ السهل هو الذي تحتاج إليه الصحافة فصرت إذا كتبت مقالاً في جريدة أعنى بسهولة التعبير وبساطة البيان فإن الصحافة لا غنى لها عن هذه السهولة، وهذه البساطة وكنت أتتبع بعض

الكتّاب الذين يتقعرون في بيانهم الصحفي فأرى أن الذين يتقعقرون ينفرون القراء عنهم. إن قارئ الجريدة يهمه قبل كل شيء إذا وقع نظره على خبر أو تعليق أو مقال أن يصل ذهنه إلى إدراك ما يشتمل عليه هذا الخبر أو هذا التعليق أو هذا المقال في أسرع وقت، لأن وقته لا يتسع لإطالة الروية في أبواب البديع والبيان، فالصحفي يلزمه أن يكون بيانه سهلاً وبسيطاً وقد يحتاج في هذه السهولة والبساطة إلى الإيجاز والذين يسهبون في كتابة أخبارهم ومقالاتهم يخرجون عن روح الصحافة وقد وجدت أن بعض الكتّاب يضيق أفق تفكيرهم فيستعينون على هذا الضيق بتوسيع أفق بيانهم فيعبرون عن الفكرة الواحدة بجمل متعددة، وأعتقد أن هذا مناف لأصول الصحافة فإذا كان وقت قارئ الجريدة يضيق عن التفكير في ألفاظ تظهر عليها روح التقعر فإن هذا الوقت يضيق عن قراءة جمل متعددة تعبر عن فكرة واحدة. سهولة في اللفظ، وبساطة في البيان، وإيجاز في العبير، هذه هي على ما أعتقد عناصر أسلوب الصحفي ولكن هل في العرب والإفرنجة؛ هم الذين يميلون في بيانهم إلى السهولة والبساطة والإيجاز فلا نشهد في كتاباتهم آثار التقعر أو الغلو في أبواب البديع والبيان إلا أن الأدباء في حاجتهم إل ىهذه الصفات، السهولة والبساطة والإيجاز يحتاجون أيضاً إلى العناية بالفن أي بالجمال وقد تكون عنايتهم أشد من عناية رجال الصحافة، فالصحفي وقته ضيق ومستوى قارئ جريدته وسط، فلا تسع وقته للتفتيش عن طرق

الجمال في تصوير فكرته، أما الأديب فإن همه قبل كل شيء ينصرف إلى البحث عن هذه الطرق ولكل أديب أسلوب في الإفصاح عن الجمال، واحد يهمه الإهتداء إلى لفظ محسوس ناطق أو إلى تشبيه نادر أو إلى استعارة طريفة، وواحد يهمه الاستعلاء بألفاظه وجمله حتى يبعد عن مستوى الناس ويعيش في مستوى منفرد، وما يهتم به الأديب في بيانه يقل إهتمام الصحفي به في صحافته، أو على تعبير أضبط، قد يختلف إهتمام الأديب بالجمال عن اهتمام الصحفي، فالصحفي يعيش مع الناس في تفكيرهم وذوقهم وشعورهم وفي الإفصاح عن هذا التفكير والذوق والشعور ولا يبعد عن هؤلاء الناس إلا قليلاً، أما الأديب فإنه يعيش مع الناس ومع نفسه في وقت واحد إنه يعيش مع الناس في تفكيرهم وذوقهم وشعورهم ولكنه يعيش مع نفسه في الإفصاح عن هذه الأمور، وأرجو أن لا يكون في فكرتي هذه بعض الغموض، إن الأديب يفكر كما يفكر كل واحد منا ويشعر كما يشعر كل واحد من الناس، ولكنه لا يعبر عن تفكيره وشعوره مثل تعبير كل واحد منهم، إن له أسلوبه الخاص في هذا التعبير وهذا الأسلوب هو الذي يجعل فرقاً بين كاتب وكاتب. ندخل بهواً فيه سيدات متأنقات في ملابسهن فإذا بحثنا عن هذه الملابس وجدناها متقاربة في الجنس، إلا أن الذي يفرق بين سيدة وسيدة في بعض الأوقات إنما هو منديل تطرحه سيدة على عنقها فيجعل لها رونقاً لا يكون لغيرها أو سواراً تلفه على معصمها فتظهر محاسن هذا المعصم أو

جلسة خاصة تجلسها على مقعدها لا تشبه جلسات غيرها، وهكذا الأدباء فإن الذي يميز بين أديب وأديب إنما هي طريقة التعبير عن فكر وشعور يتساوى الناس فيهما، فالأديب يعتني بهذه الطريقة أكثر من إعتناء الصحفي.

وفي كل حال لا بد للصحفي وللأديب من العناية بالبيان، إلا أن هذه العناية تختلف بعض الاختلاف، فالصحفي يهمه الوصول إلى تصوير فكرته من أقرب الطرق وانبساطها، والأديب يهمه الوصول إلى هذا التصوير من الطريق نفسها ولكنه قد يعرج في طريقه على بعض أبواب من أبواب محاسن التصوير أكثر من تعريج أهل الصحافة.

أسلوبان

لا أتعرض لما تعرض له صاحبا المعالي: شاكر الحنبلي وتوفيق شامية، ولكني لم أشأ أن أمراً بمقاليهما الأخيرين دون أن أدون ما خطر ببالي وأنا أقلب النظر في هذا النمط من المناظرة.

إني لا أتكلم إلا من ناحية الأسلوب، ولا أريد بالأسلوب التنبيه على نوع من أنواع البديع وأشباه ذلك وإنما أريد به طريقة المجادلة.

أما معالي شاكر الحنبلي فقد غلبت عليه الأستاذية فكأنه على المنبر يقر درسه فلا ترى في قوله إلا الحجة البليغة ولا غرابة في ذلك فقد كان مفخرة معهد الحقوق في الماضي وهو الآن من مفاخر سورية.

وأما معالي توفيق شامية فقد لجأ إلى السخرية دون شيء من الأذى والإيلام وهي الطريقة التي قال فيها فولتير: إذا شئت أن تقتل خصمك فاجعله ضحكة وهذه طريقة لا يتقنها كل واحد منا.

أجد في بعض الأحيان ثورة على الشيوخ ولكن إذا كان شيوخنا

من هذا الطراز فأكرم بشيخوختهم، إني لا أخرج على نزعة الشباب، فأنا أعيش بين أساتذة شباب وبين طلاب شباب وأنعم بصحبتهم ولكن هذا لا يمنعني أن أعطي الشيوخ حقهم إذا كانوا أهل هذا الحق.

لقد تناكرنا ماضينا القريب، ونحن لا نعلم أننا إذا نعم حاضرنا بشيء من نعم الفكر أو السيادة أو الاستقلال فالفضل في ذلك يرجع إلى هذا الماضي الذي تناكرناه وإلى طائفة من رجالاته.

ولكن ما إلى هذا قصدت في مقالي الوجيز وإنما الذي توخيت إيضاحه إنما هو هذا الطور الجديد الذي دخلت فيه صحافتنا. لقد كان يؤلمنا أسلوب فيه بعض سوء القول فلا يستطيع صاحب فكر أن يبدي رأيه في مسألة حرصاً على كرامته من أن يثلمها فلم جامح، على أن رأس الديمقراطية على ما نعتقد حرية الفكر والشعور، فالأسلوب الذي لجأ إليه صاحبا المعالي شاكر الحنبلي وتوفيق شامية إنما هو أسلوب منزه، فيه حجة ولكنها قوية وفيه سخرية ولكنها بريئة.

لقد اندفعت بعض الأقلام وبعض الألسن في نوع من الشتم والقذف فلا يكاد أحد يظهر رأيه في أمر من الأمور إلا قالوا فيه أنه من أذناب الاستعمار ولا يكاد أحد يستحسن مشروعاً أو يستقبحه إلا قالوا فيه أن المستعمرين هم الذين دفعوه إلى هذا الاستحسان أو هذا الاستقباح، فكأن المستعمرين واقفون في سقوف حلوقنا فإذا

عطس واحد من الناس قالوا أن المستعمرين هم الذين عطسوه، وإذا اختلفت زوجة وزوجها قالوا إن المستعمرين هم الذين دفعوا الزوجة أو حرضوا الزوج وإذا قال واحد لا إله إلا الله قالوا إن المستعمرين هم الذين حثوه على الإيمان أو على الكفر. فأين الديمقراطية وأين أصولها.

لا نشك في نيات المستعمرين السيئة ولقد عانينا منهم أشياء كثيرة ولا نزال نعاني ولكن أفلا نستطيع أن نرد على أحد يخالفنا في الرأي دون شيء من الشم والقذف، أفلا نهتم بالحجة وحدها فإن الإندفاع في القذف معناه ضعف الحجة والهرب من المنطق.

إن صاحبي المعالي شاكر الحنبلي وتوفيق شامية طلعا علينا بأسلوبين: أحدهما يفند رأي الخصم دون شيء من الفحش، والثاني يجعل الخصم ضحكة دون شيء من الأذى وهذه فاتحة خير في الصحافة.

الحجة لا تدفع إلا بالحجة أما قولنا أن فلاناً من أذناب الاستعمار أو أن فلاناً من المأجورين، إذا صح في زمن من الأزمان فهو في هذا الزمن أشبه شيء بخيمة كره كوز!

مظاهر الحرية في العرب

خلاصة محاضرة شاعر الشام وأديبها الأستاذ شفيق جبري عميد كلية الآداب

افتتح الأستاذ المحاضر محاضرته بكلام المؤرخ المسعودي على سبب اختيار العرب لسكنى البدو، فالعرب في القديم اختاروا البادية حتى يكونوا محكمين في الأرض بعيدين من التقيد والجنس والحصر.

ثم شرح كلام المسعودي بلغة هذا العصر، فذكر أن السبب في اختيار البادية ناشئ عن الميل إلى الحرية، فالبادية هي التي ولدت في العرب الشغف بالحرية فلما انتشرت فكرة الدولة فيهم بعد الإسلام، نقلوا إليها الحرية التي ورثوها في الصحراء.

ثم لخص أقسام محاضرته فحصرها في الكلام على الحرية في الدين والأدب والسياسة القومية وحرية المرأة والتربية والقضاء وحريات أهل الكتاب، وحريات الناس في مقامات الخلفاء والأمراء والعمال.

بدأ بالبحث عن الحرية في الدين، فكلم على المعتزلة الذين يسمونهم أصحاب الفكر الحر، وحصر بحثه في إمام من أئمتهم وهو الجاحظ فذكر فضل الجاحظ في أمور الدين والعلم واستشهد بمثلين من تفسيره وتأويله، وأشار إلى مكانة المعتزلة في تخليص الدين من الخرافات والأباطيل.

ثم انتقل إلى البحث عن الحرية في الأدب فذكر أقوال إمامين كبيرين في هذه الحرية وهما ابن قتيبة وابن فارس اللذين لا يريدان أن يحصرا الأدب في زمن من الأزمان وفي أفق من الآفاق، وعلق على أقوالهما، فبين فضل الحرية في الأدب التي جعلته يستعد لقبول الأفكار الحديثة في الفلسفة والعلم والعواطف الجديدة في الشعر.

ثم أتى على ذكر الحرية في السياسة القومية فتكلم على الشعوبية وعلى غاياتهم في تهديم العرب من كل النواحي وقال إن اتساع صدور العرب لمزاعم الشعوبية أكبر دليل على الحرية في ذلك الزمن.

وبعد هذا كله بلغ إلي الكلام على الحرية الاجتماعية، فصور حرية المرأة في الزواج وفي التحدث إلى الرجال ووصف بعض مجالسها الأدبية وتكلم على الحج الذي كان أكبر معارض حرية المرأة ثم بحث عن ثقافة المرأة في هذه الحرية.

ثم أتى على ذكر حرية التربية في الدور والمنازل فذكر كيف كان الأبناء يصرحون بآرائهم في آبائهم دون شيء من التهيب، ثم

تكلم على استعمال الناس حريتهم في القضاء وعلى استعمال الناس حريتهم في القضاء وعلى مسامحة القضاة الكبار أمثال أبي حنيفة ويحيى بن أكثم.

ولم يتمتع المسلمون وحدهم بهذه الحريات فقد كان لأهل الكتاب امتياز خاص، فكانت العرب تعطف على النصارى للملك الذي كان لهم قبل الإسلام وللقرابة، فكان منهم كتاب السلاطين وفراش الملوك وأطباء الأشراف، أما اليهود فقد كانوا يحسدون المسلمين، ولذلك كان المسلمون يبغضونهم.

وبعد أن وصف المحاضر أنواع هذه الحريات، دخل بالجمهور قصور الخلفاء والأمراء والعمال على زمن بني أمية وبني العباس وأسمعهم ما كان يدور في تلك القصور من نقد الخلفاء في سياستهم وأخلاقهم وأمزجتهم وطبائعهم فقد كان الناس يستطلعون عليهم ويطعنون على نزاهتهم في وجوههم ويحطون من مقاديرهم وينبذون ببنائهم ويسمعونهم ما يكرههم ويغضبهم ويبكيهم وكان الخلفاء يحملون عنهم ويسكتون.

ثم ختم الأستاذ المحاضر محاضرته بقوله: إن هذه الحريات لم تكن مضطردة في تاريخنا فقد كان يقع في عصر واحد كثير من العنف والمسامحة. ورد أسباب هذا التناقض إلى فقدان المبدأ العام في الدولة فلم يكن للدولة مبادئ واحدة يجري عليها الخلفاء والأمراء والعمال وإنما كانوا يعملون بحسب أمزجتهم وأخلاقهم وأهوائهم

في أكثر الأحيان، ولهذا وقع العنف إلى جنب الحرية، فقد كان الشعراء أجرأ الناس على أصحاب السلطان، ولكنهم كما كانوا رسل الحرية كانوا ضحاياها أمثال بشار وأبي العتاهية ودعبل غيرهم.

وكان آخر كلامه: ليست الحرية قولاً مؤلفاً من حروف، وإنما الحرية عقيدة مؤلفة من إيمان وما دامت الجامعة السورية قد خلقت لترويض العقول على الحرية فالحرية ستكون عقيدة النشء الكريم في الحاضر والآتي.

الأيام ١٩٥٠

إلى أخي سعيد التلاوي

بعث إلينا الأخ القديم والصديق الكريم الأستاذ شفيق جبري بمقال رائع يعقب فيه على مقالنا أمس «بعد غياب شهر» وهو كما سيراه القراء الأعزاء آية من آيات الفن العالي، وصورة من صور الأدب المشرق وصفحة من صفحات البلاغة ننشره بما فيه ليسر قراء العربية بشيء جديد من إنتاج شاعر الشام الكبير وأديب الجيل الشهير، قال الأستاذ شفيق جبري حفظه الله»:

أحمد الله تعالى على رجوعك إلى «فيحائك» وأنت معافى في بدنك، آمن في نفسك، فقد كنت في خلال غيبتك مشغول الفكر بهذه الغيبة، لأنك كنت رويت لي حديث فتى هولندي قال لك أن أندونيسية تكثر فيها الأفاعي والعقارب فلما رحلت رحلتك الميمونة قرأت لك آية الكرسي ودعوت الله في السر والعلانية أن ينجيك من كل نهشة ومن كل لسعة ولكني تذكرت بعد هذا كله مناعة جسمك فلم أخف أن تقتلك الأفاعي والعقارب وإنما خفت أن تموت هذه المساكين إذا هي نهشتك أو لسعتك، فأهنئ الوطن برجوعك إليه، وأهنئ القراء باتحافك إياهم بعد اليوم بنتائج رحلتك، وأهنئ أعداءك بسلامتهم من شر قلمك شهراً كاملاً وقد

سمعتهم يدعون الله في غيابك أن تجعلك الحكومة وزيراً فوق العادة في أندونيسية حتى يخلصوا من شرك إنه السميع المجيب!

استفقت في هذا الصباح وإذا بالفيحاء تحت الباب فسحبتها وبادرت إلى قراءتها وسرعان ما اشتد سروري لما أخذت عيني مقالك: «بعد غياب شهر» ورأيت أسمك الوديع في ذنب المقال، لم أقرأ مقالك قراءة وإنما التهمته التهاماً لأني مولع بقراءة الرحلات وعسى أن تكون رحلتك أخصب من رحلة ابن بطوطة، وإن كانت العصور قد تغيرت والأفكار قد تبدلت، ولكني على كل حال رأيت في مقالك شيئاً طريفاً فاسمح لي بأن أشير إلى هذا الشيء الطريف الذي أوحى إليَّ كتابة هذا الكتاب.

هنيئاً لك هذه الوطنية الهادئة التي ندعو إليها في أدبنا وكتابتنا وشعرنا، وأعني بها حب المرء وطنه دون شيء من الضوضاء، لقد احتفظت بمقالك الكريم حتى إذا لا سمح الله دعيت إلى الرثاء في يوم من الأيام استوحيت المقال فيجيئني الشعر، هنيئاً لك هذا الخلق الطيب في شغفك بدمشق على الرغم من حمصيتك فأرجو الله أن يجيب دعوتك وأن يقيها صروف الدهر وأن يجعل فيها عز الشرق حتى يوم الدين.

ولكن ما هذا وحده الذي استمال قلبي في مقالك لقد استماله شيء آخر نتهامس به في مجالسنا.

لقد قلت في بعض المقاطع:

«ولكن نهجنا في الحياة يختلف عن نهجهم جميعاً فهل نحن من طينة غير طينة هؤلاء البشر الذين يشكلون ثلاثة أرباع العالم!»

وقلت في مقطع آخر:

«أما نحن فننام ونفيق وإذا بنا أمام عدة زعماء جدد قد نبتوا في الوجود وتقدمو لحمل البنود وحشد الحشود على الطريقة الفريدة، طريقة الوصول إلى الحكم بأي ثمن ومن بعدهم الطوفان!».

هذه هي الروح الجديدة التي تجلت في مقالك، أفرأى الذين غمسوا ألسنتهم فيك بسبب رحلتك الميمونة نتيجة هذه الرحلة إلى بلاد العقارب والأفاعي.

الحمد لله الذين صقل قلمك بعد أكلك من جوز الهند في أندونيسية ونجر طبعك وشحذ فهمك فرأيت مالم يره الناس أورأيت ما يراه عقلاء الناس، إننا يا أخي من طينة غير طينة البشر، إننا نعتقد إنا نحن محور العالم بأجمعه فلا يدور الفلك إلا إذا سمحنا له بالدوران ولا تطلع الشمس إلا إذا أذنا لها في الطلوع، ولا ريب في أن إعتقاد الكمال خير من إعتقاد النقص، ووضع الإنسان نفسه في المحل الرفيع أفضل من وضعه هذه النفس في المحل المنخفض ولكنا جاوزنا كل حد ، ولست أعلم مقدار هذه المعتقدات إذا جدت الأمور جداً وكشرت الشدائد عن أنيابها في اليوم الأسود، إن رجال سياستنا خاضعون لارادات غير إرادتهم، يرون الصواب فيقبلون عليه مسايرة لأهواء غير أهوائهم أو إذا أحببنا أن نسمي

الأشياء بأسمائها كما فعلت في مقالك البين قلنا أنهم يخبصون ما يخبصون وصولاً إلى الحكم!.

اسمح لي يا أخي بأن أقول لك إن هذه النتيجة التي رجعت بها بعد رحلتك تفوق في نظري نتائج رحلة ابن بطوطة أو السندباد البحري ولو كنت غنياً لمهدت لك السفر من حين إلى آخر حتى تعود إلى وطنك الذي أحببته حباً ملأ قلبك وروحك بعجائب الحكم وطرائف الآيات وإذا أوحت إليك بلاد العقارب والأفاعي هذه العجائب والطرائف، فلا شك في أن بلاد الأدباب البيض ستوحي إليك عجائب أعجب وطرائف أطرف.

إننا يا أخي من طينة غير طينة البشر، فالحرية مستفيضة في بلادنا إستفاضتها في بلاد الأوادم، والديمقراطية منتشرة في ديارنا إنتشارها في ديار الناس ولكنا نفهم الحرية على شكل خاص يختلف عن كل شكل وندرك الديمقراطية على نحو من الإدراك لا يشبه أي نحو كان، سألتني اذاعتنا من اسبوع سؤالات شتى، من جملتها هذا السؤال: لماذا أزهد في الكتابة فكان جوابي أن الأدب يتطلب قبل كل شيء الحرية فإذا ماتت الحرية مات الأدب في دمشق خمس وعشرون جريدة، اللهم زد وبارك! لكل جريدة رأي خاص في سياسة الأمور والحكم على الناس فإذا ذهب أحدنا إلى روسية ووصف ثلج سيبرية قالوا فيه أنه شيوعي، وإذا ذهب إلى أميركة وتغنى بشلالات النياكرا قالوا فيه أنه أميركي، وإذا ذهب

إلى نجد وتمتع من شميم عرارها قالوا فيه أنه سعودي، وإذا ذهب إلى العراق وسرح طرفه في نخيل دجلته وفراته قالوا فيه أنه هاشمي، وإذا قبع في عقر داره وسلم الناس من شره قالوا فيه أنه صاحب ماليخوليا، أفنجد في العالم كله عقلية مثل هذه العقلية أفرأيت لماذا أولعت بمقالك واحتفظت بهذا المقال وملأت شعوري من قولك: إننا من طينة غير طنة البشر، لقد فششت خلقي بهذه الحكمة التلاوية، وثق بأنك فششت أخلاق كثير من الناس ولا ريب في أن القراء ينتظرون مقالاتك بشيء من فقدان الصبر لأنهم أصبحوا في حاجة ماسة إلى من يسمي لهم الأشياء بأسمائها، أصبحوا في حاجة إلى من يقول لهم في الشيء الأسود أنه أسود، دون أن يحسب حساباً لشتم الشاتمين أو قذف القاذفين فكأن القرائح قد صودرت لأن بعض الناس يحرصون على سمعتهم من أن تثلم وعلى كرامتهم من أن تجرح، فإذا جاء كاتب مثلك وقال الحق غير هياب ولا وجل قدروه حق قدره.

لست أتمنى لك بعد اليوم إلا الاكثار من الرحلات والبعد عن العيون التي ترجع إلينا بالحقائق الناصعة فإنكم معاشر أصحاب الصحف تخالطون الناس وتمازجونهم أكثر من كل واحد إنكم تقفون على مواطن شعورهم وذوقهم وكرهم وإن صناعتكم الشريفة تمهد لكم السبيل إلى الإتصال بهذه المواطن كلها فتستطيعون بفضل هذا الإتصال أن ترققوا الشعور وتصفوا الأذواق

وترشدوا الأفكار إن حالتنا يا أخي أكثر مما وصفت وأشد مما وصفت ولسنا نعلم ما يصير إليه أمرنا، فهل لك أن تتجرد بعض التجرد فتكتب لنا دون أن تحسب حساباً لغير الضمير والوجدان وأظن أن قلبك عامر بهما ودون أن يتسلط على قلمك القوي غير حب وطنك الخالد.

فهل من رحلة ثانية إلى بلاد آجوج وماجوج. رافقتك السلامة!..

الفيحاء ١٩٥٥

«اليوم» بعد الاندماج

إذا جعلت اندماج «الأيام» و «الإنشاء» في جريدة واحدة موضوع هذا المقال، فالسبب في ذلك أني فقدت أسماء ألفتها من زمن غير قريب، لقد كانت هذه الأسماء جزءاً مني، فقد عشت أنا وأصحاب الصحف من أربع وثلاثين سنة، نشرت في صحفهم كثيراً من أفكاري وعواطفي وشركت أصحابها في كثير من أفكارهم وعواطفهم، لقد كانت صلتي بهم أشد من صلتي بالطبقات كلها، عشت معهم ومارستهم ومارسوني وفقدت منهم إخواناً أتاهم الله الشيء الكثير من مهارة الصنعة وحسن البيان وصدق المبدأ، فإذا اهتممت بتغيير أسماء الصحف التي ألفتها من سنين طويلة فلا غرابة في ذلك، على أني لا أرى في تغيير الأسماء شأناً كبيراً، فقد يتغير الأسم وتبقى الروح واحدة ويبقى الأسلوب واحداً، وقد تتغير الأسماء، فتتغير الروح ويتغير الأسلوب، الجوهر في هذا كله روح الجريدة وأسلوبها أما الاسم فهو عرض.

لا يحمد الثبات في كل حال من الأحوال وقديماً مارس السياسة «فيكتور هوغو» فغير أفكاره كثيراً وكان لا يرى في ثبات الرجل على فكر واحد مدحاً لهذا الرجل، فإن الرجل يثبت على فكر

واحد مثله في رأيه كمثل الماء الراكد في المستنقعات، فمن شروط الحياة التطور، فالمرء لا يذم إذا غير أفكاره وإنما يذم كل الذم إذا غير وجدانه وضميره في تغيير أفكاره، المهم أن يبقى الوجدان في التطور غير مثلوم والضمير غير مصدوع.

هذا ما كان يقوله«هوغو» في تغيير أفكاره السياسية فلا عبرة في تغيير الأفكار وإنما العبرة في تغيير الوجدان، أصبحت صحافتنا في حاجة ماسة إلى الإصلاح وإذا كان لا يعنيني وصف السبيل إلى هذا الإصلاح فإني أرجو أن يكون الاندماج الأخير تحقيقاً له.

لم أشعر بقوة الصحافة شعوري بها في هذه الأيام، إني أطالع من حين إلى آخر مجلات مصرية فتقع عيني على صور قصور الملك فاروق فألهو بتحف هذه القصور بفضة أوانيها وذهبها وتماثيلها ونحو ذلك فأقول في نفسي كيف يكون وقع هذه الصور في نفوس ملايين من فلاحي مصر يعيش أكثرهم بقرش مصري في النهار، كيف يكون وقع هذه الصور في نفوس ملايين من الناس أكلهم رغيف خبز ورأس بصلة، يمرض الشعب من الجوع ويمرض الملوك والأمراء من التخم ومن شيء أفظع من التخم، ولكن شتان بين هذان النوعان من المرض، وإذا كنت لا أجيز لنفسي أن تخوض في موضوع مثل هذا الموضوع وإنما أترك حق الكلام عليه لأصحابه، فإني أجيز لها أن تؤمن بقوة الصحافة وسلطانها، فإن نشر صور مثل الصور التي تنشر في مجلات مصر والتعليق البارع عليها يفعل

في نفوس الفقراء البائسين مالا تفعله الثورات فتشتد نقمة هؤلاء الفقراء ويعظم سخطهم ويتفاقم كرههم للملوك وأمراء خرجوا في لذاتهم ونعيمهم عن كل مألوف.

لقد ذكرني سلطان الصحافة في يومنا هذا سلطان صحافتنا في القديم فقد رزق أدبنا من ألف سنة وأكثر مخبراً من أحذق المخبرين يجمع الأخبار من أوثق مصادرها اشتغل في جمع أخباره خمسين سنة حتى اختل عقله في آخر حياته وأصابه الفالج أعني بهذا المخبر أبا الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني، تعودنا أن نرى في هذا الكتاب العظيم مادة أدبية تزيد في محاسن ذوقنا وشعورنا وبياننا، ولكني بعد أن توليت تدريسه ثلاث سنين وجدت فيه مادة صحفية أعظم من مواد صحفنا في هذا العصر، لقد دخل أبو الفرج على الخلفاء والوزراء والعمال قصورهم في الليل ففضح أسرارهم وكشف عن لهوهم وتبذيرهم وصور مساوئ حياتهم الخاصة، فولّد بهذا كله نقمة في النفوس وسخطاً في القلوب وكرهاً في الصدور، وإذا لم تفطن العصور السابقة إلى ما فعله أبو الفرج الأصبهاني فقد فطن إلى ذلك عصرنا هذا.

هذا ما تفعله الصحافة إنها قادرة على أن تظهر الحق وتدحض الباطل والناس لا يطلبون منها أكثر من ذلك، فإذا كنا نتمنى إصلاح صحافتنا بعد الاندماج الحديث فإنا لا نتمنى هذا الإصلاح إلا للوصول إلى إظهار الحق ودحض الباطل وسواء علينا بعد ذلك

أكان أسم الجريدة الأيام أم الإنشاء أم اليوم فالذي نرجو بعد تغيير الأسماء إنما هو فطنة الأساتذة أصحاب الصحف إلى تقديس صنعتهم، وإذا كانوا لا يجدون شأناً عظيماً في تغيير الأسماء فإنهم يجدون هذا الشأن في المحافظة على صدق الأسلوب والوجدان والضمير.

لو كنت وزير الأدب

لهوت من أيام بمطالعة مجلة فرنسية قديمة، قرأت فيها عنواناً غريباً: لو كنت وزير الأدب؛ فاستمالني هذا العنوان إليه وقلت في نفسي: هل بلغ الأدب من أمة مبلغاً حمل رجاله على أن يتصوروا وزارة له، ما أشد التباعد بين أمة ترى الأدب أرفع درجة من درجات العقل البشري، وبين أمة يرى الأدب رجالها أسفل درجة من درجات هذا العقل، ولكن الذي قال لا يعرف الفضل إلا ذووه عالم من علماء النفس، إن الذين يتصورون وزارة للأدب يعلمون فضل الأدب وتأثيره، ويعرفون أن هذا الأدب هو الذي قلب أوضاع بلادهم بفضل كتّاب أمثال فولتير ومونتسيكو وروسو وديدرو أما الذين يحتقرون الأدب، ولماذا لا أقول أما الذين يحتقرهم الأدب، فإنهم يريدون أن يتصرفوا في القلوب وهم لا يعرفون مداخل هذه القلوب ومخارجها، إنهم لا يعرفون لغة هذه القلوب.

أرجع إلى العنوان الغريب: لو كنت وزير الأدب، فإن صاحب المجلة التي أشرت إليها كتب إلى طائفة من كبار الأدباء كتاباً سألهم فيه عن العمل الذي يعملونه لو كانوا وزراء الأدب.

لقد جاءته جوابات شتى طالعت أكثرها قال أحد الأدباء: لا ينتظر الأديب من الأوضاع الإدارية إلا عبوديات جديدة، فأنا لا أوافق على أن يكون للأدب وزارة.

وقال أحدهم: لو كنت وزير الأدب لأعلمت النواب بأن وزارة الأدب لم تنشأ لحشوها بصنائعهم من طلاب الوظائف.

وقال أحدهم: لو كنت وزير الأدب لقلت للأدباء فتشوا لكم عن عمل آخر تعيشون منه، ولأعنتهم وأنا وزير على هذا العمل.

والخلاصة جاءت جوابات شتى بعضها فيه شيء من الهزل والتهكم، وبعضها فيه شيء من الجد.

فها أنا أقف على جواب أعجبني أكثر من غيره؛ قال صاحب هذا الجواب: لو كنت وزير الأدب، ولكن كن مطمئن البال فإني لن أصبح وزير الأدب لأني لم أخلق للسلطة، على أني لو كنت وزير الأدب لبذلت جهدي قبل كل شيء في جعل حرية الكتّاب مقدسة، لأنها أول الخيرات التي يطمحون إليها، ولولاها ما نشأت المؤلفات الكبيرة.

نعم! حرية الكتّاب مقدسة، إننا لا نكاد نتصور مقدار اللذة التي يجدها الفكر في شيوعه واستفاضته ولا نكاد نتصور الألم الذي يألمه الفكر من حبسه وضغطه، إني واحد من الناس أفضل أن يسلبوا مني كل شيء في هذه الحياة على أن يتركوا لي حرية واحدة وهي حرية الفكر، بهذه الحرية وحدها تستطيع أقلام الوطن أن

تؤدب كل ظالم ومستبد، وأن تبين كل غش وكل تدجيل وكل كذب، بهذه الحرية وحدها تستطيع الأقلام أن تمزق هذا اللباس الذي نلبسه، ظاهره إخلاص وباطنه تدجيل، ظاهره تضحية وباطنه أثرة حيوانية، فبحرية الفكر وحدها يستطيع الأدب أن يكشف الغطاء عن أخلاق كاذبة وعن تدجيلات باطنة، وعن أباطيل منمقة وأضاليل مزوقة.

ليأخذوا مني كل شيء وليعطوني حرية الفكر وحدها ليعطوني هذه الحرية وحدها حتى يتبسط الذهن في مداه، ويستفيض الحسن في مجاله، ويمتد الشعور إلى سمائه، والعاطفة إلى أفقها، وحينئذ يعلمون قيمة الأدب، وحينئذ يعلمون أنهم لا شيء في هذا العالم.

حرية الفكر أول الخيرات التي يطمع فيها الكتَّاب، في أي أفق نشأت أعظم عبقرية في العرب، وأعني بها عبقرية الجاحظ، هل نشأت في أفق ملآن من القهر والضغط؛ كلا ثم كلا؛ إنها لم تنشأ إلا تحت سماء أمكن فيها القول وصلح فيها الدهر، وهبت فها ريح العلماء وكسد العي والجهل وقامت سوق البيان والعلم.

تحت سماء مثل هذه السماء تنشأ العبقرية الخصبة والحياة الواسعة؛ والفكر الوافر والذهن المنطلق، فالذين يضغطون حرية الفكر يقتلون كل عبقرية وكل فكر وكل ذهن، إنهم يشتتون الضياء ليشتد الظلام.

ومهما أقل في هذه الحرية المقدسة فإن قولي لا شيء إلى جنب ما

قاله «هوغو» إنه بعد أن نشر كتابه «البائسين» ذهب إلى «بروكسل» فدعاه الذين نشروا له هذا الكتاب إلى طعام حضره أشهر كتّاب الدنيا، فأحاطت به نفوس شريفة وحيته أطيب التحيات، فرد على تحياتها، ولكن الذين حضروا الطعام يذكرون أن «هوغو» لم يستطع أن يحبس دموعه لما مرت بذهنه فكرة جرح «غاريبالدي» وحبسه في جبال إيطالية، أي فكرة مقاومة الفضيلة والحرية.

خطب «هوغو» خطبة تغنى فيها بحرية الصحافة، وإني لأعجز عن أن أجد لغة أعبر بها عن فكر «هوغو» في هذه الخطبة، قال في جملة ما قال:

الصحافة إن هي إلا ضياء العالم الإجتماعي ولا يمتد الضياء إلى شيء إلا امتدت إليه العناية.

الفكر إنما هو شيء أكثر من الحق، فالفكر إنما هو نسمة الرجل نفسه فالذي يضع عقبة في سبيل الفكر فكأنه يتصدى ليجني على الرجل نفسه، فكل تقليل من حرية الصحافة يقابله تقليل من الحضارة فلا تحجز حرية الصحافة إلا استطعت أن تقول أن غذاء النوع البشري يمنع منه.

مهمة عصرنا أن يبدل الأوضاع القديمة في الجماعات، وأن ينشئ النظام الصحيح وأن يقيم الحقائق مقام الأوهام ففي تبديل القواعد الإجتماعية لا شيء يعترض الصحافة.

الصحافة قوة لأنها العقل.

إنها البوق الذي ينبه الشعوب، إنها تعلن بعلو الحق إنها لا تنظر إلى الليل لتحي الفجر إنها تؤذن بطلوع النهار وتنبه العالم.

على أنهم في بعض الأحوال ينبهونها فتنبيههم هذا يشبه صوت البوم الذي يوبخ الديك على صياحه.

الأيام ١٩٥٠

ابن الشام

بلعت الشام كل الأمم.. كما تبلع الأرض الماء
وغلبت لغتها العربية على كل اللغات لقوة تركيبها وخصب مادتها ورخامة نغمها

لما حضرت معاوية الوفاة ويزيد غائب دعا مسلم بن عقبة المري والضحاك بن قيس الفهري فقال:

أبلغا عني يزيد وقولا له: انظر إلى أهل العراق، فإن سألوك عزل عامل لهم في كل يوم فاعزله عنهم، فإن عزل عامل أهون عليك من سل مائة ألف سيف ثم لا تدري على ما أنت عليه منهم.

هذه عبارة دونتها في دفتري الخاص من أربعين سنة، ولم تكن غايتي في تدوينها إلا الاستعانة بها وبأمثالها على تقويم البيان، فما كنت أفطن إلى ما تنطوي عليه من الأسرار ولا كنت ألتفت إلى ما في تضاعيفها من الخصائص، وإنما همي في تلك السنين البعيدة كان تحدي البلغاء في صناعة الترسل والإنشاء حتى آلف أساليبهم وأمتزج بمناحيهم.

أما اليوم فقد عادت إلى ذهني عبارة معاوية فلم أهتم في ثناياها

بما كنت أهتم به من قبل، عادت هذه العبارة فلم أحفل ببيانها وإنما حفلت بما كشفت لي من عوالم مديدة الآفاق، لقد رأيت فيها عالمين مختلفين رأيت فيها رجلاً أحاط بأسرار السياسة أي سياسة الناس، ورأيت فيها شعباً طبعه الله على خصائص، فإذا جهل الرجل هذه الخصائص زلت به قدمه في سياستهم.

عهد معاوية إلى ابنه يزيد أن يلاين أهل العراق ويسايرهم وما عهد عهده هذا إلا لعلمه بطبائع أهل العراق وأخلاقهم وأمزجتهم، وقد نجاه هذا العلم من كثير من المتاعب، فإن عزل عامل من حين إلى آخر خير من فتنة لا يعلم إلا الله وحده عواقبهما، لم يخطئ معاوية في وصيته فإن الذي يعرف العراق يعرف قساوة الطبيعة فيه، اذكر أني في رجوعي من الحجاز ونجد إلى بغداد وذلك من خمس وعشرين سنة، هبت علينا عاصفة على الزبيدية في طريقها إلى الحج، فبت في السيارة وكنت أحسب أن السماء كادت تسقط عليّ بنجومها وصواعقها، كان البرق يخطف بصري وكان دوي العاصفة يهز أعصابي ولما وصلت في اليوم الثاني إلى بغداد وصف لي بعض الأصدقاء شدة العاصفة فقد مات منها على الطرق ما يقرب من مائة شخص، لا ريب في أن قساوة الطبيعة أورثت أهل العراق شدة في شكائمهم وعزائمهم وقد كان معاوية يعلم بهذه الشدة فتلافاها بالمسايرة والملاينة وهذا منتهى الإحاطة بالعناصر النفسية في سياسة الناس.

سياسة النــاس

لا شيء أصعب مــن سياسـة النــاس، لأن الرجـل عــادة مركــب مــن شـخصيات شتى لا تظهر إلا في أحوال معينــة، ومـا هـذا الثبـات الـذي نـراه في شخصية كـل واحـد منـا إلا شـكل ظـاهر لا غـير. تثبـت هـذه الشـخصية بثبـات أحـوال معينـة فـإذا تغـيرت هـذه الأحـوال تغـيرت شخصية الرجـل فالهـادئ يصبح ثـائراً، والرقيـق يصبـح قاسـياً والفـاضل قـد تتنـاثر فضائله، فـإذا جهـل رجـال السياسة هـذه الخفايـا النفسـية فـإن جهلهـم يـؤدي إلى الإخفـاق في سياسـتهم أو إلى الذهـاب بحيـاتهم أو إلى القضـاء علـى بلادهـم في بعـض الأحيـان. لم يكـن قصـدي مـن تصدير حديثي بكـلام معاوية الإشـارة إلى العـراق ورجولـة أهلـه وإنمـا قصـدي الرمـز إلى طبـائع ابـن الشـام. فمـا هـي خصـائص أهـل الشـام وكيـف ينبغي لرجـال السياسـة أن يعـاملوا أصحـاب هـذه الخصـائص.

ميـل الشـعب إلى حريتـه

أرجـو قبـل أن أدخـل في الموضـوع أن يسـمح لي بالإشـارة إلى مقـال صديـق مـن أصدقـائي ذكـر فيـه بعـض مقـاطع مـن محـاضرة حـاضرت بهـا في هـذا المركـز الثقـافي ومـن قصيـدة أنشـدتها في حمـص ومـن كلمـة ألقيتهـا في مهرجـان الشـعر الأخـير وقـد اسـتخرج مـن هـذا كلـه تأثـير الأدب في الانقلابـات وتمهيـده السـبيل للثـورات ولكـني أريـد أن أستخرج نتيجـة ثانيـة قـد يكـون لهـا صلـة بـالحديث الـذي أحـدث بـه.

لقد ترددت بعض التردد في الإشارة إلى المواقع الذي وقعته تلك المقاطع من النفوس ولكن الذي يشجعني على هذه الإشارة إعتقادي أن النفوس لم تستحسن ما استحسنته من الأقوال إلا بالقدر الذي أعربت به عن شعورها وحسها، فهي رأت فيها صورة شعورها النبيل وحسها الشريف، فكان مثلها في ذلك كمثل المرأة المليحة التي تنظر في المرأة فإذا أعجبت في نظرتها بشيء فإنما تعجب بملاحتها قبل كل شيء وما المرآة إلا وسيله إلى إحساسها بهذه الملاحة.

ما أصدق ما قاله المتنبي:

إنما تنجح المقالة في المرء إذا صادفت هوى في الفؤاد.

ولقد صادف ما ألمعت إليه من الأقوال هوى في فؤاد هذا الشعب فنجحت وما نجاحها إلا دليل على ميل الشعب إلى حريته وعلى تأففه من الظلم والاستبداد وعلى انقضاضه على كل من تحدثه نفسه بإخضاعه وإذلاله، إن شعباً هذا يسير من خصائصه، من صفاته وأخلاقه لجدير بأن نعرف شيئاً من روحه ومزاجه فإن معرفة رجال السياسة بهذه الروح وبهذا المزاج توفر عليهم كثيراً من المشكلات وتوفر علينا كثيراً من المصائب.

الجهل بأخلاق الشام

لست أحاول الأستقصاء في معرفة أخلاق الشام وطبائعها فما أنا

بعالم من علماء النفس والإجتماع، وإنما أستعين ببعض تجارب الحاضر وبما اقتبسته من بعض حوادث التاريخ فقد دلني هذا الأقتباس وهذه الاستعانة على أن الذين زلت به أقدامهم في سياسة أهل الشام إنما هم الذين خفيت عنهم أخلاق الشام وطبائعها وأمزجتها فوردوا موارد لم يهتدوا على الصدور عنها وذهبوا مذاهب طاشت فيها عقولهم وضلت فيها أفهامهم فكان من عواقب هذا الطيش وهذا الضلال مصائب توالت على أهل الشام في متطاول الأحقاب.

بلع الشام للأمم التي غزتها

لست أعلم في هذا القليل الذي درسته من تاريخ الشام شعباً يشبه شعب الشام فلا أحاول الإزعاج بشيء من طول التاريخ وإنما أكتفي بالإشارة إلى بعض الأمم التي بسطت سلطانها على ديار الشام وإلى بعض اللغات التي تعاقبت عليها ومن هذه الإشارة الخفيفة تتبين لنا غرابة هذا الشعب في مراسه وغرابة لغته في قوة بنيانها.

أي بقعة من بقاع الأرض مر عليها ما مر على الشام من الأمم لقد مر عليها الآشوريون والبابليون والكلدانيون والكنعانيون والفينيقيون واليونان والصليبيون والتتر والترك وغيرهم وغيرهم، ولكن ما فعل الله بتلك الأمم، ما فعل الله ببقاياهم في الشام، لقد

اشتملت الأرض عليهم فبلعتهم كما تبلع الماء، وأقلعوا كما تقلع السماء واستوت الشام على جبالها وسهولها، فأين الرومان الذين حكموها ما يقرب من ثلاثة قرون؟! أين ما وقع في تلك العصور البعيدة من نزاع وشقاق واستبداد وحروب ومظالم ومطامع وويلات ونكبات.

وكما مرت على الشام أمم كثيرة غزتها وحكمتها ثم تقلص ظلها عن أهل الشام وبقى أهل البلاد وحدهم يتمتعون من هوائها وشمسها، ويسرحون في جبالها وسهولها، فكذلك مرت عليها لغات كثيرة منها الآرامية والسريانية والعبرانية والفينيقية واللاتينية واليونانية وغيرها وغيرها فصارعت العربية هذه اللغات كلها وغلبت عليها بفضل ما حباها الله من قوة التركيب وخصب المادة، ورخامة النغم.

ولا بأس بأن نضيف، أن كل ما تقدم ذكره ما نشأ في الشام من مختلف الأديان، أديان اليهود والنصارى والمسلمين ومن مختلف النحل والمذاهب.

لم أرم في كل ما سلف ذكره إلا إلى أمر واحد لقد حاولت أن أبين أن للشام وجهاً خاصاً. فقد ورثت صفات كثيرة من الأمم التي تعاقبت عليها فتمازجت هذه الصفات وتلاحمت على تراخي السنين حتى أصبح للشام طبيعة خاصة استطعنا أن نعرف أسرارها في السنين القريبة التي أتت علينا.

لين الشام وشدتها

ليس من الضروري أن نستقصي في معرفة هذه الأسرار. فحسبنا الإشارة إلى خصائص الشام في أخلاق نظنها متناقضة. وليس فيها شيء من هذا التناقض. لقد جمعت بين اللين والشدة في وقت واحد. وعلى قدر ما نرى من دماثتها في ملاينة من مر عليها من الأمم والفاتحين، نرى من شدتها في الثورة عليهم والوثوب بهم.

ولكل من هذه الدماثة وهذه الشدة أسباب إنها تلاين الفاتحين على قدر ما تسمح به الملاينة إتقاءً لشرهم في أول الأمر أو توقعاً لما قد يمكن أن يتم على أيديهم من الخير ثم تنكشف لهم نياتهم الخبيثة فيثورون عليهم ويثبون بهم. لقد أورثتهم صلتهم بالغزاة والفاتحين نعومة في ظاهرهم وخشونة في باطنهم.

فهم يلبسون لكل حال ما يناسبها من اللبوس وهذا دليل على استعدادهم للحياة فليس في طبائعهم شيء من اليبوسة والجفاف. إنهم يباشرون في أوقات المياسرة ويعاسرون في فرص المعاسرة وهذا برهان على فرط حكمتهم.

تصيب الشام مصائب فتخفت أصواتها في بدء الأمر وتسكن حركاتها وتلبد عزائمها، حتى يظنها الإنسان قد ماتت وحتى يكاد يقطع أمله منها. وإنها لفي مثل هذا الخفوت وهذا السكون وهذا اللبود إذ تثور ولا ثورة البركان، وتهب ولا هبوب العاصف

وتموج ولا موج الخضم. وويل يومئذ للذي يقف في وجهها، لقد علمتها الأحقاب التي توالت عليها ما لم تعلم. علمتها الصبر على الشدائد كما علمتها الثورة على هذه الشدائد، ولا أنسى في هذا المقام كلمة سمعتها في قصر الملك عبد العزيز بن سعود وكنا ضيوفه في مكة. قال لنا رحمه الله: علمتمونا أهل الشام غرس الزيتون. وهو يريد بهذه اللغة الشفرية الصبر على الويلات لأن الزيتون من الشجر الذي لا يثمر إلا بعد سنين فهو لا يشبه غيره من الشجر فأهل الشام يصبرون في النكبات والويلات ولكن لصبرهم حداً يقفون عنده.

مناعة دمشق

وإذا اقتصرنا في حديثنا عن الشام على مدينة دمشق فخرجنا من التعميم إلى التخصيص فما ذلك إلا لأن دمشق كانت في أغلب عصورها تمثل الشام كلها إنها لم تعش في أكثر العصور التي مرت عليها عيشة راضية. فقد تقلبت عليها فتن واضطرابات في أكثر أزمانها، والذي يرجع إلى تاريخها القديم والحديث ويقلب النظر في هذا التاريخ يعجب من بقاء دمشق حتى اليوم بعد المصائب التي أصابتها والشدائد التي توالت عليها، ولا ريب في أن بقاءها هذا إنما مرجعها إلى مناعتها التي لم تستطع الأحقاب أن تزلزلها وقد لفتت هذه المناعة نظر طائفة من كتَّاب الغرب فنوهوا في كتاباتهم

فلم يغب عن – لوتي – ماضي دمشق فقد شهد أنها عرفت المجد على اختلاف روعاته ومرت عليها المخاوف على تباين أنواعها.

نزلها أعاظم الفاتحين ففتنتهم ببهجتها. كم هُدمت وكم أُعيد بناؤها على نماذج فخمة من نماذج الماضي حتى سميت في الحديث لؤلؤة الشرق وملكته وسميت في القديم. جنة الدنيا.

انتقلت من سلطان البيرنطيين إلى سلطان العرب فأنست ببني أمية وبني العباس وخربها التتر وأحراقها ـ تيمورلنك ـ ثم بعثت بعد هذه الأحداث كلها بفضل مائها الذي لا ينضب، وواحتها التي لا تنقطع خضرتها.

لست أحتاج إلى الإسهاب في الفتن والاضطرابات التي شهدتها دمشق فإن بطون التاريخ قد ملئت بهذه الفتن وهذه الاضطرابات إلا أني لا أرى مندوحة لي عن ذكر أنماط منها أستدل بها على مناعة ابن الشام وعلى استعداده للثورة على كل من تحدثه نفسه بظلمه وعسفه واستصفاء ماله وإذلال عشيرته، وهذه المناعة خاصية من خصائص أهل الشام فكما عرفوا باللين في أخلاقهم فقد عرفوا بالشدة في هذه الأخلاق.

انتقاض الشام على الظلم والمصادرة

ولقد كان لهذه الشدة مظاهر شتى. مرة كان أبناء الشام ينقضون على الظلم والاعتساف فقد ذكر صاحب خطط الشام ـ

إن أهل دمشق وثبوا في سنة ٢٤٠ بعامل المتوكل سالم بن حامد لظلمه وعسفه فيهم وقتله جماعة من أشرافهم ورؤسائهم فقتلوه على باب الخضراء قال ابن عساكر: إن سالماً كان سيئ السيرة. أذل قوماً من دمشق كان بينه وبينهم طائلة ودماء في أول دولة بني العباس وآخر دولة بني أمية...

فقتلوه على باب الخضراء وقتلوا من قدروا عليه من رجاله وسلطوا الموالى على رجالهم وأموالهم فسلبوها.

غضب المتوكل لمقتل عامله وقال:

مَنْ لدمشق... وليكن في صولة الحجاج. فقيل له: أفريدون التركي. فأمره وجهزه إليها في سبعة آلاف وأحل له القتل والنهب ثلاثة أيام فنزل بيت لهيا قرب دومة فبات بها فلما أصبح قال: يا دمشق ايش يحل بك اليوم مني. فقدمت له بغلة وهمَّ ليركبها فلما وضع رجله في الركاب ضربه بالزوج في صدره. فسقط ميتاً.

وكما كان أبناء الشام يثورون على من يفكر في ظلمهم وعسفهم كذلك كانوا يثورون على من يطمع في أموالهم.

كلنا نعلم أن لسيف الدولة فضلاً عظيماً في تاريخ الشام خاصة والعرب عامة، فقد رد الروم عن هذه البلاد ووقف في وجههم سنين طويلة وهو لا يملك من الشام إلا بقعة من بقاعها، أهمها الجزيرة، وحلب وحمص وإنطاكية، ومهما نقل في فضل سيف

الدولة فلا نستطيع أن نوفيه حقه أكثر مما وفاه إياه المتنبي فإن تصويره لبطولته ومعاركه يكاد يكون أثراً ناطقاً.

أراد سيف الدولة أن يستولي على دمشق وقد كانت دمشق وما وراءها بيد الأخشيدية أصحاب مصر، فسار إلى حمص فلقي الأخشيدية فيها فهزمهم سيف الدولة، فانحدروا إلى دمشق. فلحقهم. ثم خرجوا منها يريدون مصر.

أقام سيف الدولة بدمشق وجبى خراجها وجعل يطالب أهلها بودائع الأخشيدية وربما طمع في ضم الشام إلى الجزيرة ثم في الأستيلاء على مصر، كل هذا لا بأس به، ملك عربي، رد الروم عن ربوع الشام، إنما الخطأ الذي وقع فيه بعد ذلك أنه كان يتنزه في يوم من الأيام هو والشريف العقيقي في غوطة دمشق فلما وقعت عينه على هذه الغوطة وعلى شجرها الملتف امتدت إلى أخذها من أهلها وقد كانت عليه نفقات تثقل الظهر، لفرط كرمه من جهة، ولمحاربة الروم من جهة ثانية فقال وهو في أفياء الغوطة بين هديل عنادلها وحفيف ورقها وثغاء غنمها: لا تصلح هذه الغوطة إلا لرجل واحد، معنى هذا أنه طمع في استصفائها حتى ينتفع بغلاتها فيسد قسماً من نفقاته فقال له العقيقي: هي لأقوام كثيرة، وعلم أهلَ دمشق بطمع سيف الدولة فيها، فكاتبوا الأخشيدية ليستعينوا بهم على سيف الدولة ولينقذوهم من طمعه

فجاءهم كافور وابن الأخشيد ووقعت الحرب بين الجيشين وكان النصر لعسكر الأخشيد فارتد سيف الدولة عن دمشق وسلمت الغوطة لأهلها.

إننا لا نشك في أن أهل دمشق لو لم يتطاول سيف الدولة لأخذ الغوطة من أصحابها ولو لم يلجأ إلى المصادرات لأعانوه على الأخشيدية ولامتد حكمه إلى دمشق وإلى ما وراء دمشق ولكن طمعه في أموالهم هاجهم فوقع بين عدوين، عدو أمامه وهم أصحاب مصر وعدو خلفه وهم أهل دمشق فلم يجد بداً من الانسحاب والرجوع إلى حلب.

وهكذا نجد أن غلطته الصغيرة حرمته ملكاً كبيراً.

ومن قبيل انتقاض ابن الشام على الظلم مهما يكن أنواعه وأشكاله ما وقع في دمشق في أيام الفاطميين، إنهم لما فارقوا دمشق إلى فلسطين قدم عاملهم عل أهلها رجلاً اسمه قسام الحارثي من الأبطال المعروفين وقيل من أرباب الدعارة العيارين، وقد دون هذا الحادث صاحب خطط الشام: (كان أصل قسام من قرية تلفيتا في سنير يعتاش بنقل التراب على الحمير وتنقلت به الأحوال حتى صار له ثروة وأتباع وغلب على دمشق وما إليها من الأصقاع بحيث لم يبق معه لنوابها من الفاطميين أمر ولا نهي ودام ذلك سنين وكان القائد أبو محمود بن إبراهيم المغربي قد عاد إلى البلد والياً عليها للعزيز فلم يتم له مع قسام أمر وامتدت أيدي أصحاب

أبي محمود بالعبث والفساد وقطع الطرق فاضطرب الناس وخافوا ونزح أهل القرى عنها لشدة نهب المغاربة أموالهم وظلمهم لهم ووقعت فتنة عظيمة بين عسكر أبي محمود وبين العامة فألقى عسكره النار من ناحية باب الفراديس فأحرقوا تلك الناحية وكانت فيها أجمل قصور دمشق وحرق كثير من أحياء البلد وهلك فيه جماعة ومالاً يعد من الأثاث والأموال ثم صالحوا القائد أبا محمود، ثم انتقضوا).

نكاد لا نجد فرقاً بين تاريخ ابن الشام في القديم وتاريخه في الحديث، يطمع في بلاده من يطمع، وينهب أمواله من ينهب ويحرق قصوره من يحرق، فيصبر على مثل هذا الظلم ما قدر على الصبر ويتماوت ما قدر على التماوت ولكن نتيجة هذا الصبر وهذا التماوت إنما هو الإنتقاض، هذه خاصية من خصائص ابن الشام.

ولو ذهبت إلى الإكثار من الاستشهادات لامتد بي مجال الكلام فاكتفيت بذكر نماذج منها فإني لم أقلب صفحة من تاريخ الشام إلا وجدت بعدها فتنة واضطراباً، ووجدت السبب في هذه الفتنة وهذا الاضطراب ظلماً أو مصادرة، ووجدت عاقبة هذا الظلم وهذه المصادرة ثورة أو وثوباً، هذا هو تاريخ الشام في قديمه وهذا هو تاريخها في حديثه.

ولو تتبعنا تاريخ العثمانيين في هذه البلاد لوجدنا أن هذا التاريخ ملآن من الثورات والاستعباد والاستبداد، ثورات الأهلين واستعباد الولاة لهؤلاء الأهلين واستبداد الحكام بأمور الحكم، أضف إلى هذا كله ما كان يصحب هذا الاستعباد وهذا الاستبداد من نهب وسلب وظلم، فكان معظم الولاة كان همهم جمع المال من أقبح الوجوه لا يبالون بظلم مَنْ يظلمون في جباية الأموال، وإذا ضاقت الحال بأحد العقلاء على نحو ما جاء في خطط الشام (فرفع صوته بالشكوى عدوه خارجياً وقاتلوه وحرفوا دعوته على ولاة الأمر في الأستانة ولبسوا على العامة في أمره حتى يسكتوا نأمته ويزيفوا دعوته وإلا فلا يعقل أن يسكت جميع الناس عما ينال الأمة من هذه الطريقة المعوجة في الإدارة فالخير في الناس ما انقطع ولن ينقطع ومهما بلغ شعب من الانحطاط لا يخلو من نبهاء يجاهرون بالحق ولو كان في المهاجرة حتفهم أحياناً).

وقد نجد في بعض المخطوطات مثل مخطوط الباشات والقضاة غرائب من طراز الحكم في أيام العثمانيين فكان الوالي إذا غضب على ناحية يبعث إليها جنداً ليأمرهم بتحطيم أشجارها كما فعل والي دمشق سنة ١١٠٨ وقطع توت حاصبيا فقد كانت الدولة تعهد ولاية البلاد إلى ولاة يدفعون إليها الخراج المقرر ويجبون

لأنفسهم أضعافه فكانوا يسفكون الدماء ويسلبون الأموال.

وإذا أحببنا أن نلخص تاريخ تلك العصور لخصناه في كلمات: تاريخ نفي وسجن ومصادرة وقتل، تاريخ ظلمات بعضها في بعض، ظلمات في كل ناحية من نواحي الحياة.

ثورة الشام على العثمانيين والفرنسيين

إذا كنت قد تبسطت في الإشارة إلى هذا التاريخ فما توخيت في هذا التبسط إلا الوصول إلى النتيجة التي تدلنا على أخلاق ابن الشام لقد صبر أهل هذه البلاد على كل ما مر بهم من المصائب التي ألمعت إليها ولقد دام صبرهم سنين طويلة وعصوراً مديدة ولكنهم لم يصبروا إلا ليثوروا ويثبوا فلما أمكنتهم مناهز الفرص ثاروا ووثبوا ولقد اختمر في أذهانهم هذا الوثوب وهذه الثورة أحقاباً طويلة حتى جاء الوقت المناسب فلما أعلن الملك حسين نضر الله عظامه، ثورته على الترك في خلال الحرب الكبرى الأولى انضم إليها فريق من أبناء الشام وما كان انضمامهم إلا إعراباً عن تأففهم من ظلم العثمانيين الذي طال قروناً مديدة، وعن ضجرهم من استبدادهم واستعبادهم ونهبهم وسلبهم ومصادراتهم وهذا دليل على أن أهل الشام إذا ناموا عن الضيم فلا بد لهم من أن يهبوا بعد هذا النوم.

تناقض رجال السياسة

لقد كنت أستطيع الإستغناء عن الإستشهاد بالماضي فإن الحاضر حافل بحوادث من هذا الشكل، ولقد عشت في هذا الحاضر من أربعين سنة أدون في ذهني ما أمر به من الأحداث ولست أذهب إلى الإنقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ وإنما أذهب إلى أواخر الحرب الكبرى الأولى أي إلى انسحاب الترك من هذه البلاد ودخول العرب. من ذلك الحين كانت تحدث حوادث يجد بعض المفكرين فيها تلون أهل الشام وأجد فيها حقيقة فضيلتهم.

قالت لي مرة آنسة مصرية تعالج الصحافة: أفلا ترى استقبال الشام لجمال عبد الناصر، أفلا تجد دليلاً في هذه الحفاوة البالغة على منزلته في القلوب وعلى محبة الناس له، قلت لها: هل تعرفين أهل الشام إنهم إذا إعتقدوا في رجل من الرجال صلاح السيرة واستقامة المذهب استقبلوه في هزيز مواكبهم فهذا الإستقبال لم يكن خاصاً بعبد الناصر وإنما هو خاص بالفكرة التي أفصح عنها عبد الناصر، فأهل الشام يضعون ثقتهم برجل من الرجال فيعظمونه أشد تعظيم ويكرمونه أبعد تكريم ثم يقدسونه تقديساً لا غاية بعده وقد يتفق بعد هذا التعظيم والتكريم والتقديس أن ينقلبوا عليه أسوأ منقلب وليس السر في ذلك تلون أهل الشام وإنما السر في ذلك تلون الرجل الذي عقدوا الآمال عليه فخيب ظنهم.

مرت على هذه البلاد وزارات ورياسات كثيرة، كان الناس في أولها يهنئون أصحابها زرافات ووحدانا وربما سعت دمشق إليهم بأجمعها ووفد الناس عليهم من بقاع الشام كلها للغاية نفسها فإذا أتى على هذه الوزارات والرياسات حين من الدهر انقلب الناس على أهلها وغمسوا ألسنتهم فيهم ونبهوا على أضاليلهم واستفزوا القوم للخروج عليهم والسبب في ذلك أن أولئك الوزراء والرؤساء دخلوا وزاراتهم ورياساتهم ببرامج براقة وبيانات مشرقة ومواعيد خلابة فلما تبحبحوا في كراسيهم وخلا الجو لهم أنقطعت الصلة بينهم وبين الناس وإذا ببرامجهم كالهباء المنثور وإذا ببياناتهم كالطبول الفارغة وإذا بمواعيدهم كالسراب الخادع فالإنقلاب لا يكون على أشخاصهم وإنما يكون على مبادئهم ومذاهبهم وسيرتهم إن أصحاب هذه الوزارات والرياسات يجهلون السياسة النفسية وجهلهم هذا هو الذي يزل أقدامهم ويطيح كراماتهم ويدحرج كراسيهم.

وإذا كان أبناء الشام يعاملون أصحاب الحكم الذين هم منهم على هذا الشكل فأجدر بهم أن تكون معاملتهم للأجانب الذين غصبوهم بلادهم أشد وأقسى وما ننسى معاملة الأهلين للفرنسين وللذين جاروهم في سياستهم فقد أقام الفرنسيون بهذه البلاد من منتصف سنة ١٩٢٠ إلى أوائل سنة ١٩٤٧ فما فترت عزائم الناس ولا خفتت شكائمهم، فكانوا يخرجون من إحتجاج إلى إحتجاج

ومن مظاهرة إلى مظاهرة ومن ثورة إلى ثورة فلا أهل الشام إستراحوا ولا الفرنسيون وجدوا مثل هذه الراحة والسبب في ذلك كله واضح فقد دخلوا البلاد بحجة من الحجج، دخلوها بشكل جديد من أشكال السياسة وهو الإنتداب ثم طبقوا فيها شكلاً آخر وهو الإستعمار فجهلوا نفسية الشعب وخفيت عنهم بواطن أخلاقه وأمزجته فأدى بهم هذا الجهل إلى الجلاء عن الشام كما جلوا من قبل عن كندا والهند ومصر وشمالي أفريقية.

أسباب نقض الوحدة

وقد يجدر بي أن أنهي حديثي بالإستشهاد بما تم في السنين الأخيرة: أي في سني الوحدة لنرى في إنقلاب ابن الشام على هذه الوحدة صفة من صفاته:

كانت الوحدة حلماً من أحلام العين ومنية من منى القلب ولكن لم يفاجئنا هذا الحلم مفاجأة ولا باغتتنا هذه المنية مباغتة فقد كانت وحدتنا بنت الثورة. ثورة الفكر والشعور من ماضٍ بعيد ومن حاضر قريب. لم يثر رجالنا في حاضرهم وماضيهم إلا لينقلوا البلاد من شتات إلى وحدة، ومن عبودية إلى حرية ومن إحتلال إلى إستقلال.

فإذا كان هم أصحاب الفكر منا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين أفلم يكن همهم في ثمرات خواطرهم ونتائج قرائحهم

الحض على هذه الوحدة وعلى هذه الحرية وعلى هذا الإستقلال. فما ينبغي للثورات أن تكون حقائق فلسفتها إلا نقل المجتمع من نظام فاسد إلى نظام صالح. من مذهب معوج إلى مذهب مستقيم. أما الذين انحرفوا في التاريخ عن هذه الحقائق ولم يروا من وراء الثورات إلا نقل الناس من ظلم إلى ظلم ومن إستئثار إلى إستئثار ومن أوثان إلى أوثان فقد كذبوا على الله وعلى أنفسهم وعلى الناس. أما الله فقد كشف عن نياتهم ففضحهم وأما أنفسهم فقد كانت ميتة لا تحس بتأنيب وتقريع وأما الناس فقد تربصوا الدوائر بهم حتى أنزلوا غضبهم عليهم.

ليس همي في هذا الحديث الكلام على الوحدة وإنما اتخذت هذه الوحدة سبيلاً إلى الكشف عن أخلاق ابن الشام. إنا لا نزال نذكر قيام الشام وقعودها في أول وحدة مصر والشام فكان ما تناثر من الخطب والمقالات والقصائد لا يزال يملأ أذهاننا وكان ما طبق أعنان السماء من أغاريد وأهازيج لا يزال يملأ آذاننا وأظن أن القلم يعجز عن إحياء هذه الغبطة التي عمت بلاد الشام في أول الوحدة فالناس كلهم قد استبشروا بها ورأوها مقدمة لوحدة العرب كلهم علهم يستطيعون أن يقفزوا في وجوه من يطمع في الإستيلاء على وطنهم أو إخراج من غصبهم جزءاً من هذا الوطن والخلاصة كانت الوحدة آمال سنين طويلة طالما تغنى بها الشعراء والكتاب والمفكرون فلماذا نقض أهل الشام ما أبرموه من ثلاث

سنين لماذا يئسوا اليوم مما أملوه أمس. هل في هذا اليأس وهذا النقض ما يدل على تلونهم ومللهم.

إني لا أرى في هذا كله ما يدل على التلون والملل وما أظن بي حاجة إلى تكرار ما قيل في أسباب النقض واليأس فقد أشبع رجال الجيش والسياسة والإختصاص القول في هذا الموضوع وأتوا بالبراهين الساطعة على صحة ما عزموا عليه من نقض الوحدة وقد رأى الدكتور أبو غنيمة أن وزير الثقافة والإرشاد القومي الدكتور عزة النص كان أفصح من تكلم في هذا الشأن لمّا قال في بعض بياناته وخطبه: إننا آمنا بالوحدة رسالة وآمن إخواننا في مصر بها سياسة.

ما أعظم الفرق بين فكرة تكون رسالة، وفكرة تكون سياسة، أما هذه الرسالة فقد عرفنا قدسها ولكنها لما انقلبت إلى سياسة ضاع هذا القدس لأن صاحب هذه السياسة قد عمل كل ما من شأنه القضاء على الوحدة، مالت البلاد إلى الوحدة لتكون لها هذه الوحدة قوة تقاوم بها من يحيط بها من العدو في أطرافها، فكانت ضعفاً في كل شيء، ضعفاً في جيشها، ضعفاً في ثروتها، ضعفاً في تربيتها وثقافتها، مالت البلاد إلى الوحدة لتكون ألفة فكانت تشتيتاً، لقد شتتت في البلاد بين الطبقات فأوغرت صدور بعضها على بعض ولقد عاشت البلاد سنين طويلة ما عرف في خلالها أنه

وقع نزاع بين طبقة وطبقة فكان الفلاح وصاحب الأرض على أتم ألفة وكان العامل وصاحب العمل على أكمل إنسجام، مالت البلاد إلى الوحدة لتستمر في حياة دستورية تنعم فيها بحرياتها على إختلافها، حرية الرأي والإجتماع والصحافة فكانت الوحدة تقييداً لكل هذه الحريات وما عرف مثل هذا التقييد حتى في أيام الإنتداب الفرنسي مالت البلاد إلى الوحدة لتسلم من حكم الطغاة فكانت الوحدة عنوان أكبر طغيان عرفته البلاد في عصرها الحديث، طغيان في الإستبداد بالحكم ولا وزن لوزير أو نائب أو رأي عام، طغيان في التبذير في كثير من الجنون، والفلاحون في مصر حفاة عراة، طغيان في الغرور وما وقع في مثل هذا الغرور من ثارت مصر عليهم من الملوك، طغيان في أباطيل الدعوة الفارغة وأضاليل التهويش، وما تم على أيدي هذا الطغيان شيء يذكر حتى اليوم فإن ما صحب حوادث بورسعيد من التطبيل والتزمير قد يكشف عنه غداً رجال التاريخ فيوضحون ما كان لأهل الشام خاصة وللعرب عامة من الفضل في تأييد مصر..

سيداتي ! سادتي!

لقد أعدت عليكم في حديثي هذا ما أخذته منكم، أخذت منكم صورة أخلاق الشام القوية فأعدتها عليكم في بياني الضعيف.

هذا هو ابـن الشـام..

هذه هي الشـام

يهـدأ المــاء علـى أنهارهـا　　فـإذا حـس بضيـم زمهـرا
لا يغرنـك نسـيم خلفـه　　عـاصف مـا هـب إلا عفـرا
أعصـر تمضـي وتـأتي أعصـر　　وجبـال الشـام تطـوي الأعصـرا
أيـن غـارات العـدى فـي ظلهـا　　مضـت النـارات ريحـاً صرصـرا
طـوت الـروم علـى أنجادهـا　　وطـوت تحـت ثراهـا قيصـرا

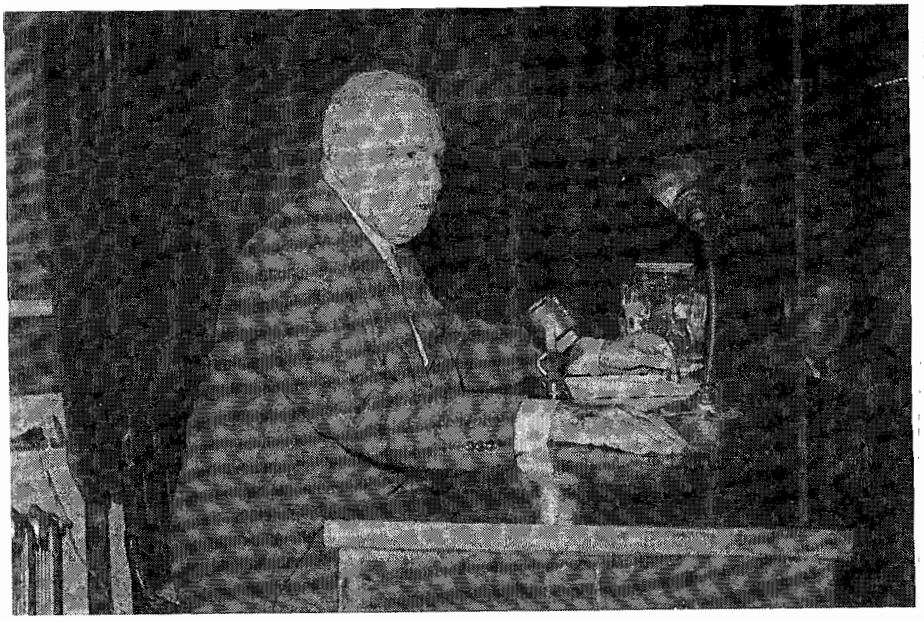

محاضرة في المركز الثقافي العربي
دمشق ١٩٦١